رأيت ... وسمعت ...

بقلم
نعمت صدقي
حرم الدكتور محمد رضا

الطبعة الأولى
١٩٧٣

مقدمة

كلما قرأ الانسان للسيدة الكاتبة ، تفتحت عيناه على معان كريمة لا يصل اليها الا من حباه الله نفسا رقيقة رقيقة ذات شفافية وحساسية ، لها من العمق ما يجعلها تستجلى الحقائق وتصبها فى قالب أدبى ذى أسلوب رائع وألفاظ موحية ومواضيع هادفة ، ولكم تصور المعانى حتى لكأنها مصور بارع يرفع الى ناظريك تلك المعانى العالية فى اطار بديع يسبى من الانسان قلبه ويسيطر على عقله وأحاسيسه ، وهى كلما طلعت علينا بمؤلف من مؤلفاتها رأيناها تشدنا اليها ونحن مسوقون الى هذا المنهل العذب والمورد الحلو ، الذى لا يكاد الانسان يرتوى منه حتى يعاوده الظمأ ليرتوى من جديد .

أطلت علينا بنعمة القرآن فكان مجموعة من النعم ألقت بها الى هؤلاء المؤمنين فزادهم ايمانا ، وقدمتها الى هؤلاء الحيارى فملأت قلوبهم يقينا ، وجذبت اليها هؤلاء الضالين فقربت منهم بعيدا وزادت الأمر وضوحا وأضافت اليه من مستمكنات الحكم ما جلبت اليه ضالات منشودات حتى رأينا نعمة القرآن كتابا لا يستغنى عنه قارىء دين ومنشد حقيقة .

واتبعت نعمة القرآن « بتربية القرآن » فكان مجموعة من المواضيع ذات السلوك الاسلامى الذى لا يصلح مجتمع

اسلامى بدونها ، ولقد فضحت الأخلاق المنحرفة وهتكت سرابها ورسمت الطريق السوى الذى يجب أن يسلكه المسلم ، من رحمة وصدق وتواضع وما شابه ذلك لا على طريق الوعاظ ، انما على طريق الحكماء المجربين والفلاسفة المتعمقين فى أسلوب ساخر أحيانا ينفر ويبغض الى النفس المعانى الأخلاقية غير الكريمة حتى ليخال الانسان أنها تفوح قذرا ونتنا فتعافها الطباع الكريمة ، وتنتقل بالنفوس الى أخلاق الاسلام الرفيعة النبيلة بما فيها من عناصر القوة الجاذبة ، حتى لكأن الانسان يرتع فى جنات ذوات ورود ورياحين وأزهار فتفيض عليه شذى وعطرا .

وأخرجت لينا « معجزة القرآن » ذلك الكتاب الذى شرحت فيه آيات علمية فسرها كثير من المفسرين تفسيرا يجافى المعانى التى تشتمل عليها ، وبذلك خدمت الايمان خدمة جليلة بما أثبتت بالدليل القاطع أن هذا القرآن هو من عند الله وأن محمدا عليه السلام مبلغ ، وليس فى مكنة كائن من كان أن يأتى بمثل هذه الآيات العلمية التى تحتاج الى تحليل ومعامل ومجموعة من التجارب مما لم يكن عند الرسول الأمى ، اللهم الا أن يكون هذا القرآن من عند الله ، وبمثل هذا دعمت الايمان فى نفوس المؤمنين وشككت المتشككين فى شكهم زالزلت هذا الشك ان لم تكن قد زرعت الايمان فى قلوب كثير ممن عادى الاسلام وهو لا يعرفه الا أنه مجموعة من البدع والخرافات والاسرائيليات ، ألقى عليها الالف والعادة قداسة فجمد عليها صانعوها ومتلقفوها فنفروا ذوى العقول والأفكار من هذا الدين الذى هو فى حاجة

لأمثال السيدة الكاتبة لتكشف لهؤلاء البعيدين عن الاسلام ، أن الاسلام دين العلم لا يعاديه ، وأنه دين السماء الذى سبق العلوم باعجازه العلمى حين لا يوجد عالم واحد بالمعنى الحديث ، وهذا من أوضح الأدلة على أن هذا الكتاب لم يكن من صنع بشر انما هو من لدن العليم الخبير .

وأخرجت لنا كتاب « رأيت وسمعت » ذلك الكتاب الذى صاغته من مسرح الحياة فكأنما هو مجموعة من أشرطة « السينما » أو مجموعة من المسرحيات التى انتزعت من واقع الحياة ومن صميم المجتمع الذى نعيش فيه ، فليس هو خيال متخيل أو تأليف مؤلف ، انما هو حياة وسلوك وغرائب وحقائق ترجمتها الكاتبة الفاضلة الى لغتنا وصاغتها فى أسلوبها الجذاب وألقت عليها من تحليلها وعمقها ، ما يجعل القارىء لا يسأم ولا يمل من متابعة الكتاب حتى كأنه يريد أن يقرأه فى جلسة واحدة ، فى أسلوب روائى شائق ، ولما كانت السيدة الكاتبة من علية القوم ومن الطبقات الارستقراطية مكنها كل ذلك من أن تكون لها رئاسة وأن تعيش فى قصور ذات جنات وحدائق ، وأن يكون لها من الخدم والحشم واللصقاء وذوى المصالح والصلات بنساء وزراء ورؤساء وزراء ورحلات بعيدة مما أعطاها علما غزيرا بالمجتمع الذى تعيش فيه ، وبسلوك من تتصل بهم هذا السلوك الذى يضحك أحيانا ـ حسب تصويرها ـ حتى يكاد يستلقى الضاحك على قفاه ، وأحيانا يثير النفس ويهيج الشعور ، ويعجب الانسان من صبر الكاتبة على أقوام أقل ما يقال فيهم أن الصفاقة قد نبعت منهم ، وحينا آخر يرى الانسان عجزه

عن مسك دمعة تهمر من أجل ثكلى معناة تحملت من أجـل يتيمتيهـا ما تنوء به العصبة أولو القـوة من الهم والغم والشقاء ، حتى اذا ما استوى عوداهما وتكسبا وأراحا أمهما سطا عليهما الموت بالحريق والحمى ورجعت العجوز الفانية التى أضناها الحزن وأطفأ من ثغرها معنى الابتسامة الى الأبد ، الى تكسب ما تقتات به لتتم البقية البـاقية من رحلتها التى تستبطئها الى القبر .

والكتاب فيه نعى كثير على أقوام لا وفاء عندهم من أبناء أفنت أمهم زهرة شبابها من أجلهم فكان نتيجة ذلك العقوق والكنود ، وعلى متكبر أفسده الكبر وقضى على حياته ، وعلى أسير زوجـه ، التى حسنت له القبيح وقبحت الحسن وزينت له الباطل فانعكس هذا على أقرب الناس اليه وفلذة كبده ، وعلى زوج بلغت أكبر الاجازات العلميـة ووصلت الى درجـة الأستاذية فى علم الذرة فيطلقها زوجها لخشيتها وعدم تبذلها والتزامها حدود الاسلام ، وعلى معتوه أصابه جنون العظمـة فاتخذ له وزيرين للداخلية والخارجيـة وبدد ماله من أجـل العظمة التى تركته عظمة لا لحم فيها ولا شحم ، وعلى شحيحه بخيلة ، المال أكبر همهـا ومبلغ علمها تريق ماء وجهها من أجل فخذ دجاجة بحجة أن النقمة تمنع النقمة ، لا تحزن لموت وحيدها ولكنها تحزن لأنه ترك لها ثلاثة أولاد تعولهم ، وتقطع رجلها بسبب مرض فلا تتألم الا من أجل النقود التى صرفتها فى المرض ، ومن أجمل ما كتب فى هـذا الـكتاب « الجهل » الذى هو غفلة وغشاوة وضـلالة وشر وبعـد عن الله ، وأن

الجـاهل لا يعرف ربه ولا دينه ولا واجبـــاته نحو ربه ونحو نفسه وانه فقد السمع والبصر والعقل ٠

والحقيقة أن هذا الـكتاب رغم أنه يكره الانســـان على متابعته لما فيه من لذة وتسلية الا أنه يعطى الانسان مجموعة كبـــيرة من النظرات والتأملات والتوجيهات والارشـــادات والمعـانى السامية الرفيعـة ما يلقى أمامه نورا يمشى به فلا يتعثر ، ويعلمه كيف يفهم الناس وكيف يعامل الناس وكيف يروض نفسه على كل ما يزين النفس ويتجنب كل ما يشينها من صور مختلفة منهـــا السيء الخبيث اللئيم ومنهـــا الحسن الجميل ٠

وان أروع ما فى هذا الكتاب خاتمته تلك القطعة الأدبية الباكية الشـــاكية الحزينة التى يحس فيها القـارىء اللوعة الحزينة والدمعة السخينة والحسرة الأليمة كأنما هى نغم بكاء ولحن دامع قد عزفتـــه أوتار القلوب فلا يتأثر به الا أصـحاب القلوب ٠

ومما يميز هذا القصص أنه امتزج بكثير من القرآن حتى جعله حبيبا الى القلب وقد ترك فيه الحكمة والموعظة الحسنة ٠
شكر الله الكاتبة المسلمة وأجزل لها حسن الثواب ٠

فتحى محمود
المحامى

كلمة الشاعر والكاتب الكبير

عبد المغنى المنشاوى

بيَّنْتِ يا نُعْمَ آياتِ الهدَى عجباً
فهنَّأَكِ مِنَ القـــرآنِ آياتُ

أطلعتِ أنجمَ كُتْبٍ للهدَى حسدتْ
من سحرِ أضْوائها الأرضَ السمواتُ

وصنَّقَ الدِّينُ لما قُمْتِ خاطِبةً
قد ظلَّلتْكِ من التوحيد رايَاتُ

ما أنتِ يا نعمةَ الرحمنِ واحدةً
يُزْهَى بها الدينُ لا بل أنتِ نعماتُ

المخلص المعجب بأخته فى الله

عبد المغنى المنشاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الكاتبة:

هذا الكتاب مجموعة من صور حية لعجيب الخلق وغريب الصفات ، التي رأيتها في حياتي وسمعتها ، أو سمعت عنها.

انها حقائق وحوادث حدثت حقيقة ثم وقرت في قرار ذاكرتي سنين عديدة طويلة ، وعاشت معي منذ الطفولة وفي الشباب كامنة في باطن عقلي لا أدري بها الا اذا بحثت عنها فوجدتها مستقرة داخله .

رأيت أن ما رأيت وما سمعت في حياتي عجيبا يصلح أن يكون ذكرى لمن كان له قلب ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر فيجتنب ما يزري به من قبيح النزوات وحقير الهفوات ، ويتحرى ما يعلو به من جميل الصفات ، اذ يرى بعين عقله من يبتعد عن كتاب الله كيف يضل ، ومن يستخف بأوامر ربه كيف يزل ، وكم من انسان يأتي ما يشتهي ، ولا يأتي ما ينبغي ، ولا يعبأ الا بما يبتغي ، فيهيم في غيابات ضلاله بلا زمام يردعه ، ولا يجد من ينبهه من عميق غفلته ، فينقذه من غمرة لذته .

ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كل والدين بل فرض على كل مؤمن ، ولكننا لمزيد الأسف نجد أن أحب وأقرب الناس الينا ، هم الذين يتركوننا نغرق في الأوحال

وهم ينظرون الينا ضاحكين ولا يحاولون انقاذنا مستخفين ، بل يقذفون بنا الى هوة الفسق والضلال غير مبالين .

ان غيبوبة اللذات وسكرة الشهوات ومشاغل الحياة ، لم تترك لنا عقلا يقودنا ويردعنا ، ويسوقنا الى ما ينقذنا وينفعنا ، فخضعنا صاغرين لما يغرينا ويخدعنا ، وعشنا غافلين عمن يرانا ويسمعنا .

نسأل الله سبحانه أن يوقظنا من غفلتنا ، وأن ينقذنا من شر شهوتنا ، ونعوذ به من شر عقل لا يهدينا ، ومن شر ايمان لا ينجينا ، ومن شر شهوة تغرينا فتشقينا ، ومن شر لذة تلهينا فتعمينا .

اللهم اغفر لنا ما نذكر وما لا نذكر ، وما لم نشكر ، فما نذكر الا القليل من كثير ذنوبنا . ولم نشكر الا القليل من جزيل نعمك وفضلك .

ان رضاك يا ربى هو كل ما أتمناه ، وغضبك يا من أحب وأجل هو كل ما أخشاه ، ولا أحب ولا أحترم الا من يرضيك ، وأبغض وأحتقر كل من يعصيك ، وأشكر جزيل نعمتك ، وأقدر واسع رحمتك وعظيم قدرتك ، فلا تحرمنى يا ربى نعيم جنتك ، (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

نرجو القارىء الكريم تصويب الأخطاء المبينة بالصفحة الأخيرة قبل قراءته لهذا الكتاب

نعمت

الأفعى

من أعجب ما رأيت فى حياتى ، السيدة شهيرة زوجة أحد أقرباء أبى ، وهى سيدة رائعة الجمال ، زرقاء العينين ، شقراء الشعر ، بيضاء البشرة ، جميلة الوجه جمالا يستلفت الأنظار ، ولا عيب فى جمال وجهها إلا نظرتها التى تعبر عن قسوة وتكبر وغرور ، نظرة نمرة تتحفز للوثوب على فريستها ، نظرة تبدو فيها الوقاحة والخبث والدهاء .

وهى متعالية متعاظمة تشمخ بأنفها وتصعر خدها للناس ، وتختال غروراً فى مشيتها ، ويبدو التهكم والازدراء فى لهجتها ، كما يبدو الاحتقار والاستخفاف فى نظرتها .

هذه السيدة وجدت لحسن حظها أو لسوء حظها ، زوجا سفيها ساذجا مطواعا ، عبدها وسجد لسلطان جمالها ، ولم يعارض لها أمرا ، بل خضع لكل ما تريده وما تتمناه ، ولو كان فى ذلك أذاه . إنه لا ينتظر أوامرها ، بل كان يرى

إرادتها فى نظرتها ، ويتلقى الأوامر من عينيها الساحرتين ، فيسارع إلى تنفيذها فى أدب وخضوع .

كان هذا الرجل الساذج الأبله يقول لأولاده ، وكانوا ثلاث بنات وثلاثة أولاد ، إن السيدة أمكم إبنة ملك وأنتم لا تدرون ، إنها إبنة ملك (الشركس) سرقت من والديها العظيمين وبيعت فى سوق الرقيق .

وكان هذا الأب الضعيف يأمر أولاده الستة بأن يركعوا احتراما أمام جلالة الملكة أمهم كل صباح وكل مساء ويقبلوا أطراف ثوبها .

وهكذا نشأوا جميعاً على طاعة أوامر هذه المرأة طاعة عمياء ، وعلى احترامها وإجلالها واحترام إرادتها احترام عبادة .

كان هذا الزوج ثريا غبيا ، تشاركه فى نصف ثروته الكبيرة أختان على جانب كبير من السذاجة والجهالة ، وكانت هذه المرأة الخبيثة الجشعة تضن على الأختين بحقهما فى الثروة وتتمنى أن تستأثر بها لترضى طمعها وشراهتها ، ولذا كانت تغرى زوجها

السفيه بالمماطلة والمراوغة ، فعاشت الأختان فى ضيق لا تنالان من ثروتهما إلا القليل ولا تحظيان بهذا القليل إلا بعد لأى .

أما جلالة الملكة الجميلة فإنها عاشت فى ترف وبذخ الملوك ، تبذر المال هى وأولادها بلا حساب .

وأذكر مرة ، عندما كنت طفلة فى سن العاشرة ، أننا خرجنا معاً أنا وأبى وأحد أبنائها ، وأوصلتنا عربة إلى مكان ما ، وكان الإبن يتأنق فى ملبسه كأنه أمير من الأمراء ، ويتحلى بالماس والزمرد فى أصابعه كملوك الهند ، ويتكلم ويمشى فى زهو وخيلاء . وبعدما وصلنا وهبطنا من العربة ، ناول سائق العربة فى فخر (ريالا) من الفضة ، فبحث السائق فى جيوبه عن نقود ليرد إليه البـاقى وهو يزيد على نصف الريال ، فانتهره هـذا الأمير المزيف فى عنف وكبر قائلا : هل أنت مجنون حتى تعيد إلى شيئاً من النقود ، إنك لا تدرى من أنا ، حقاً إنك عديم الأدب ، ففرح السائق الفقير وقال مبتسما فى احترام وإجلال : معذرة يا مولاى ، الله يطيل عمرك ياسعادة الباشا ، فتمطى الأمير فخوراً واختال زهوا .

وهكذا ظلت هـذه الأسرة الملكية تنفق فى سبيل

التكبر والتعظم ، وفى سبيل البذخ والتنعم ، وتبذر المال بلا حساب حباً فى الظهور بالترف والثراء ، كما ظلت تسرق حق الأختين الارملتين وأولادها الصغار فعاشتا فى فقر وضيق محرومتين من لوازم الحياة ، وما يحتاجان إليه من ضروريات .

كانت إحدى الأختين تصف لأبى ما تعانى من قسوة أخيها وخضوعه لأمر زوجته مقهوراً مسحوراً ، قائلة : كلما ذهبت إلى أخى لأطلب منه شيئاً من المال وأشكو له شدة حاجتنا إليه ، يدخل يده اليمنى فى جيبه ليخرج لى بعض النقود ، ولكن ما إن يلتقى نظره بنظرة زرقاء آمرة ناهية ، وما إن يفهم من هذه النظرة الساحرة الصارمة ما تريد ، حتى ترتخى يده القابضة على النقود فتخرج من جيبه فارغة ويقول معتذراً : لا نقود فى جيبى يا أختاه وسوف أعطيك ما تريدين فى يوم آخر ، وهكذا يظل يرجىء ثم يعطى القليل بعد الانتظار الطويل .

وسمعت هذه السيدة تقول لأبى مرة أخرى : كلما أذهب لزيارة أخى يبدو عليه الضرر حينما يرانى ويقول لى :

مرحباً ، أهلا وسهلا لقد اوحشتني يا أختاه ، ولن اتركك اليوم حتى تأكلين معي بل وتبيتين عندنا لأستمتع بوجودك معنا . ولكن النظرة الكهربية اللاسلكية ، ترسل له إشارة ناهية موبخة ، فيبادر بقوله : لن أعطلك عن أعمالك ولن أبعدك عن أطفالك ، وسنراك وتأكلين معنا مرة أخرى إن شاء الله فتفهم الأخت المسكينة أن وجودها غير مرغوب فيه . وتسرع بالإنصراف لتسعد هذه الافعى وتكف عن هذه النظرات الساخطات ، الآمرات الناهيات .

إن هذه الاخت المسكينة تعلم جيداً أن قلب أخيها ما قسا عليها هذه القسوة ، وما جفاها هذه الجفوة إلا بتأثير سحر عيني هذه المرأة الجهنمية ، فهي تملك زمامه وتقوده كما شاء لها الهوى حيثما تريد ، وهو ينقاد إليها بلا وعي مأخوذاً بقوة سلطانها ونفوذ جمالها ودلالها . واعجب أيها القارىء الكريم لما أتت هذه الافعى من ظلم واحتيال ، لم يخطر قبل ذلك على بال ، كان للأختين بيت ملاصق لبيتهم وكان خالياً غير مسكون ، فانتهزت فرصة خلوه وثقبت الجدار إلى الغرفة الملاصقة وصنعت به بابا ، ثم بنت باب الغرفة المسروقة وسدته لتفصلها عن الشقة

المجاورة . فأصبحت الغرفة فى شقتها . اى سرقت غرفة من بيت الأختين ولم يستطع أحد أن يشكو أو يجرؤ على اتهامها بالسرقة .

ولكن الله سبحانه المنتقم الجبار ، انتقم منها انتقاما شنيعاً ، بأن ماتت إبنتها فى هذه الغرفة المشئومة وهى تلد لأول مرة . وكانت عروسا لم يمر على زواجها أكثر من سنة . فانظر إلى نتيجة فوزها بهذه الغرفة ، وما كان من جزعها وحزنها وآلامها فى هذه الغرفة اللعينة .

ظلت هى وأولادها فى ترف وسرف حتى تراكمت الديون وحجز على جميع العمارات العظيمة العالية ، فبادرت إلينا لنرجو أبى أن يقرضها مبلغاً كبيراً من المال . فرفض قائلا لها : إنك تغرقين وتريدين أن تتعلقى بى لأغرق معك ! كلا يا سيدتى ؛ اغرقى وحدك ودعينى بعيدا عنك ؛ فتوسلت وتضرعت باكية ولكن لم يجد ذلك شيئا .

وبعد ذلك قضت الديون على كل ما يملكون ولم يبق لديهم

ما يكفى حاجتهم الضرورية . فخصص لهم أبى صدقة شهرية ليعيشوا عيش الكفاف .

أصاب هذه الظالمة التى ظلمت نفسها وغيرها وقادت معها إلى الجحيم زوجها وأولادها ، شلل ألزمها الفراش سنوات عديدة فذاقت عذاب المرض وآلام الفاقة معا فى الدنيا ؛ دون العذاب الاكبر فى الآخرة .

أما هذا الابن الذى كان يتحلى بالجواهر ويرفل فى الحرير ، وينتهر سائق العربة إذا أعاد إليه بقية النقود . هذا الامير السخى الثرى . مشى على قدميه من حى السيدة زينب حتى سراى القبة لأنه لا يملك أجر الترام الزهيد . فمشى هذه المسافة الطويلة فى ساعات عديدة حتى تورمت قدماه . وذلك ليستجدى بضعة قروش كان يترك أكثر منها فيمامضى لسائقى العربات فخراً وزهواً .

لقد رأيت بعينى كيف يكون الظلم والقسوة والاحتيال . كما رأيت كيف يكون السرف والترف والزهو والاختيال ، وكيف يكون انتقام الله عز وجل من المسرفين والظالمين .

قال تعالى : [إنا أعددنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها

وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا] (الكهف ٢٩) .

وقال [ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون] (يونس ٥٤) .

الحية

هذه حية تسعى لنفعها وهواها ، لم تعرف ربها فلم ترد إلا دنياها ، ولم تتردد أن تكذب لتحظى بنفوذ وسطوة ، ولم تتورع أن تظلم لتفوز بما تتمنى من ثروة ، فأقدمت على ما يزرى بها فى سبيل ما تعبد من شهوة .

تزوجت السيدة فهيمة هذه الحية السمراء من ثرى غنى له ستة أولاد يعيشون مع أمهاتهم المطلقات ما عدا أصغرهم سنا ، وهما بنت فى سن العاشرة وغلام فى سن التاسعة يعيشان مع أبيهم وزوجته العاقر .

أرادت هذه المرأة الخبيثة أن تستأثر بكل أموال زوجها لأنها لم تنجب أولاداً يرثون أباهم ، فرسمت خطة جهنمية لتنفر الأب من أولاده وتملك قلبه فتملك زمامه بسلطان احتيالها ، فأسبغت عليه حنانها وعنايتها ، ومثلت الحب والرحمة لتحظى بثقته وقلبه ، وكانت بارعة فى تمثيلها ، حاذقة فى فنون احتيالها ، إذ سارعت إلى خدمته ، وعنيت بصحته ، وسهرت على راحته ، فسيطرت على إرادته الضعيفة ، فلجأ إليها كما يلجأ

الطفل إلى حضن أمه ؛ ووثق من إخلاصها المزعوم ، وحبها الموهوم ؛ وأسلم لها قياده ، وصدق كل ما تقول تصديقاً أعمى .

وهكذا نجحت فى خطتها وبدأت فى إنجاز ما صممته من احتيال جهنمى واغتيال شيطانى .

ومن أعجب العجب أن هذا الزوج السفيه كان يرى دمامتها جمالا . وجهلها ونقصها كمالا . إنها أعمته باحتيالها ودهائها عن الحق وعن الحقائق ، وأخمدت فى قلبه حب أولاده بما قدمت له من أكاذيب أقنعته بها أنهم يتمنون موته بل يحاولون قتله ، فصدقها الغبى بلا برهان يثبت صدقها . واستأجر خفيراً يحرس الباب الخارجى ، ووضع على السور الذى يحيط بالبيت وحديقته الواسعة أسلاكا شائكة ، وصنع (للزمزمية) الماء الخاصة به ـ قفلا احتفظ بمفتاحه .

وأعجب من ذلك أنه كان يسقى ولديه الصغيرين من دوائه قبل أن يتناوله . ويطعمها من إناء الطعام قبل ما يأكل منه . وهكذا نجحت هذه الحية السمراء فى إقناعه بأن أولاده يسعون لقتله . فاستولى عليه الذعر ونفر من أحب الناس إليه ولجأ إلى من تتملقه وتتزلف إليه لغباوته .

وكلما جاء ولده الأكبر ليطلب منه شيئا أو نقوداً ، كان الحارس

يفتشه خوفا من ان يكون يخفى (مسدسا) فى ملابسه ، و بعد التفتيش الدقيق كان لا يسمح له بالدخول ، بل يخاطبه من النافذة (والخفير) الحارس يلازمه .

لقد دهشت وعجبت مما رأيت وسمعت ، كيف استطاعت هذه المراة بل هذه الشيطانة أن تتوصل إلى السيطرة على هذا الرجل والاستيلاء على وعيه وكل حواسه إلى هذا الحد . إنها أعمته وأصمته وقيدته وساقته كيفما تشاء ، فأصبح عدواً لأولاده يمقتهم ويخشاهم ولا يبالى بوجودهم ولا يهتم بأمرهم .

لقد سقته الكره والنفور من أولاده جرعة بعد جرعة حتى أفعمت عقله السخيف بالشكوك فنفر وأعرض عن أحب الناس إليه مرعوبا مذعوراً ، إذ كان جباناً هلوعا يعبد نفسه ويخشى الموت ويعشق الحياة الدنيا .

وفى يوم من الأيام كنت أزور هؤلاء فسمعت بأذنى كيف تحرف القول هذه الحية وكيف تؤوله كما تشاء ، تكلم الابن الأكبر بالمسرة وطلب أن يكلم أباه . فقالت له هذه المرأة : إن أباك مريض فى فراشه لا يستطيع القيام والذهاب حتى المسرة ، وبعد ذلك تكلم مرة ثانية ليسأل عن صحة أبيه ، فقالت له : إنه فى الحديقة ! فقال متعجبا : كيف

نزل إلى الحديقة وهو مريض ؟لم يستطع ان يقوم إلى المسرة ليحدثنى منذ قليل ؟ ؟

فذهبت هذه الداهية إلى الأب الساذج وقالت له : إن إبنك تكدر عندما أخبرته بتحسن صحتك ونزولك إلى الحديقة لتتنزه ، إنه جزع وحزن حيث يجب أن يفرح لشفائك ، إذ كان يتمنى أن يزيد مرضك وكان يسأل لا ليطمئن على صحتك بل ليطمئن على ازدياد مرضك .

وهكذا رأيت وسمعت كيف تحاول هـــذه المرأة أن تستأثر بهذا الرجل فتحاول أن تنفره فنبعده عن منافسيها فى قلبه وفى ثروته وميراثه .

ثار دمى وسخطى من هذا الظلم والافتراء ، فقلت معارضة : ليس فى سؤال إبنك شىء مما تقوله زوجتك ومما تظنه من سوء النية ، إن ابنك تعجب من نزولك إلى الحديقة وأنت مريض لم تستطع أن تقوم من فراشك لتحدثه فى المسرة ، فكيف استطعت أن تنزل إلى الحديقة ؟ فهل فى ذلك فرح لمرضك أو كدر لشفائك ؟ لماذا تسيئون الظن بلا برهان ولا دليل ؟ إن بعض الظن إثم .

وبلغ خوف هذا الأب المخدوع من أولاده ، أن أرسل ابنه الأكبر

إلى لندن وترَكه هناك سبع سنوات لا ليتعلم ، بل ليتخلص من وجوده وينجو من قربه ، ثم أرسل كذلك الابن الثانى الى هناك ولم يكن يرسل اليهما ما يكفيهما من نقود ، ليسرف على زوجته الحبيبة التى كانت تقيم الولائم والحفلات لأهلها وأصدقائها ، والتى لم تكن تطيق أن تراه مريضا ، واذا تأخر دقائق عن ميعاد عودته يغمى عليها .

وهكذا كانت تمثل الاهتمام الشديد به وبصحته ، وأقنعته أن لا أحد يتمنى وجوده الا هى ، ولا أحد فى الوجود يخشى مرضه ويحزن لموته الا هى ، بل ان حياته أغلى وأثمن من حياتها ، ولا معنى لوجودها بدون وجوده ، (بل انه لا معنى لوجوده بدون نقوده) .

وبعد حين خشيت أن تفتر سطوتها ، وأن تقاوم ارادتها فتحبط خطتها ، وتفشل مهارتها ، فاستعانت لحرصها وعظيم مكرها بدجال اسمه الشيخ «بركان» وذلك ليعاون احتياله احتيالها ، وأوهمت زوجها الأبله بأن هذا الشيخ العظيم التقى الكريم ، يعلم الغيب وينقذ من سحر الأعداء ومن شرهم .

ونفذ الشيخ بركان أوامرها فى دقة ، وأخذ يحتال على زوجها السفيه ويحذره من شر أولاده ويسرف فى ذمهم ، كما أخذ يطرى

محاسن وصفات الزوجة الطاهرة التقية المخلصة ، ثم يتوعده بالأذى والأنتقام اذا هو مال الى امرأة غيرها، أو نظر الى غيرها نظرة آثمة ، وذلك لأن هذا الزوج كان يحب النساء الجميلات بل والدميات ، كان يصبو اليهن جميعاً .

وهكذا استطاعت هـذه الأفعى أن تقيد زوجها فى طاعتها ، وأن تقوده وترغمه على تنفيذ ارادتها ، فأصبح يخشاها ويخشى انتقام الشيخ بركان الذى كان يأمره وينهاه ، فسعى جاهـدا ليحظى برضاها ورضاه .

وأظن بل أوقن بأن الشيخ بركان هذا هو الذى احتال عليه ليهب لهـا كل ما يملك من عمارات (وفيلات) ونقود وغيرها : وأن يحرم أولاده كل الميراث ، وذلك ليحظى من هذه الحية طبعاً بمبلغ عظيم أجراً على سعيه الوخيم . فما أحقر هذا الشيخ الفاسق المنافق ، الذى يكذب مع الكاذب ويعين الظالم السارق ، انه بركان حقا ، إذ يقذف بحمم من الأكاذيب والظلم والاحتيال ، ليتهم بريئا ويظلم ضعيفاً ، فياله من ثعبان ظاهر حية تسعى للربح الحرام .

* * *

تقت الى رؤية الشيخ بركان كما تقت أن أفضح كذبه واحتياله لما

سمعت من هذا الزوج الأبله من وصف لقدرته ومهارته وكرامته ، وأنه كان يحضر لهم فى الظلام ما أخفى من السحر فى أى مكان من البيت الواسع وحديقته ، فيقع بينهم وهم جلوس على الأرض ، فقلت ولماذا لا يقع السحر بينكم فى النور ؟ قال كلا ، لابد من الظلام وهذا شرط الشيخ بركان .

ثم قال لى فى بلاهة : إياك ان ترتابى فى صدق الشيخ بركان ، فلو خطر على بالك أى شك فى صدقه ، تشعرين بثعبان يتلوى ناعما فوق فخذيك وساقيك أو تشعرين بجرادة كبيرة تحوم على وجهك فإياك أن تشكى فى صدقه .

فضحكت من سذاجته وبلاهته . وعلمت أن الشيخ بركان هذا يتخذ لعبا من المطاط الطرى الناعم ويلقيه ويحركه فى الظلام على أحجرهم وأرجلهم فيظنونه ثعبانا يسعى ويتلوى . ولعبا من الورق التى تمتد بالنفخ فتلامس وجوههم وتداعب خدودهم فيظنونها حشرة هائمة : وذلك ليخيف العقول الصغيرة .

عزمت على أن أفضح هذا الدجال الكاذب وطلبت أنا وزوجى من هذا الرجل الساذج المسكين المغلوب على أمره . أن يخبرنا بموعد مجيئه لنرى ونستمتع بعجيب ما يصنع وما يقول . وقد أعد

زوجي (بطارية) ليضيئها فجأة فترى احتياله وتفضح ألاعيبه وأكاذيبه ، ولكن هذه المرأة الداهية أخبرتنا بأنه اعتذر عن المجيء فجأة ؟ فإن المباكرة فطنت إلى عدم تصديقنا ولاحظت تهكمنا وخشيت أن يفتضح الشيخ بركان فتخسر بذلك سلاحا ماضيا تخيف به زوجها الأبله وتسوقه إلى ما تهوى وما تريد فتربح وتستفيد .

مات الزوج تاركا لها كل ثروته الطائلة ولم ينل أولاده قرشا واحدا من ميراث أبيهم . لكن البخل والحرص حرماها التمتع بما ورثت . كما سلط المرض على جسدها فعاشت محرومة من المال ومن الصحة معاً . ولم ينقذها هذا المال الكثير من آلام المرض ولا من الموت بعد عذاب طويل . ولن ينقذها من عقاب الله عز وجل على ما اقترفت من آثام .

وما أصدق قول الله تعالى فى وصفه لهذه المرأة التى حصرت كل همها وكل جهدها فى زينة الحياة الدنيا ، [من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون] هود (١٥ ، ١٦) .

الأغبياء

رأيت عجيب الغباء وعظيم السفاهة فى أسرة تتكون من أب وابنه وأختة ران على قلوبهم الجهل فأغباهم وأعماهم عن رؤية الكذب والاحتيال حتى كان هـذا العمى سبب شقائهم . ووقوعهم فى أشراك من يريد أغتصاب أموالهم .

تراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون . وينصتون اليك وهم لا يسمعون ولا يفقهون ولذا كانوا صيدا سهلا هينا لمن يحتالون فيسرقون . فرأيت كيف يسطو ويظفر ويقهر الدهاء . وكيف يذل ويخضع ويستسلم الغباء .

كان يخدمهم ويطبخ لهم طعـامهم خادم اسمه أبوزيد نشأ فى خدمتهم منـذ الطفولة . فكانوا يثقون به ولايشكون فى أمانته اذا خان . كما كانوا يصدقون قوله وكذبه اذا مان . فتواطأ هذا الخائن الأثيم المجرم القذر مع دجال كالشيخ بركان ليسرق معه من ربوه وأتمنوه . وأوهم سيده بأن فى (بدروم) البيت كنزا من كنوز

قدماء المصريين (الفراعنة) وأقنعهم بأن الشيخ العظيم الفلكى يستطيع بقوة سحره وكرامته ، أن يخرج لهم الكنز العظيم من المكان المدفون فيه ، فصدقوا أقواله واحتياله ، واستسلموا استسلاما أعمى لأوامره ليفوزوا بالكنز العظيم ، وأعطوه ما طلب من نقود .

وفى صباح يوم من الأيام ، صعد أبو زيد إليهم من البدروم وهو يقفز فرحاً ، ويصرخ ويرقص طرباً ومرحاً ، وأراهم تمثالا فرعونيا من الحجر القديم ، وزعم أنه وجده فى ركن غرفته فى (البدروم) ؛ ففرحوا وهاجوا وماجوا ، ولكنهم أرادوا أن يتحققوا من نفاسة وقيمة هـذا التمثال ، فقال لهم أبو زيد إن فى فندق (شبرد) أمريكيا خبيراً فى فن التحف الفرعونية كما أخبرنى الفلكى فلماذا لانذهب إليه غدا ليثمن هذا التمثال فنعرف قيمته ونفاسته فتطمئن قلوبنا .

وهكذا اتفقوا معاً على الذهاب فى الغد إلى فندق (شبرد) ، وما إن أصبح الصباح حتى ذهبوا إليه وسألوا عن هـذا السيد الأمريكى العظيم وطلبوا مقابلته ، ، وقد أحضروا معهم ترجمانا

ليترجم لهم كلامه من الانجليزية إلى العربية ، وأروه هـذا التمثال فنظر إليه فى دهشة وتعجب وقال بالانجليزية : إنه تمثال نادر الوجود لا يقل ثمنه عن ألف جنيه ، فكادوا يطيرون فرحاً وأخفوا التمثال الثمين فى خزانة بعدما لفوه بالورق ، وأصبغوا على الشيخ الفلكى العطايا والهدايا ، وأعطوه ما طلب وما أكثر ما كان يطلب وما كان يأخذ .

وفى يوم من الأيام قال الشيخ الفلكى لهذا السيد الساذج : إن ملكة الجن عشقته وشغفت بحبه : وتطلب منه كهدية عقداً من اللؤلؤ موجوداً فى المحل الفلانى ، فسارع المسكين إلى هذا المحل ووجد ثمن هـذا العقد المرغوب خمسمائة جنيه ، فلم يتردد فى شرائه ليرضى عاشقته العزيزة ويعبر لها عن حبه واحترامه .

ومن حين إلى حين كان يطلب هـذا الدجال نقوداً وهدايا غالية الثمن للملكة العاشقة الجميلة ، فيسارع الأبله إلى تنفيذ طلبه ليفوز برضاها .

وظل الشيخ الفلكى يخرج لهم من وقت لآخر تماثيل مختلفه الأحجام والأشكال فيفرحون ويمرحون ويجمعونها مغتبطين وهكذا ظل يطلب ثم يطلب ، ويأخذ ثم يأخذ ، حتى قضى

على كل ما يملكون من نقود : فاقترضوا لينفقوا على ملكة الجن ، ثم باعوا عدة فدادين ، وأخيراً اضطروا إلى بيع تمثال من هـذه التماثيل الثمينة ، وما إن رآه التجار حتى ضحكوا ساخرين ، وقالوا إن هـذا التمثال لا يساوى أكثر من عشرة قروش لأنه مصنوع وتقليدى لا قديم حقيقى .

وهكذا كانت هـذه الصدمة صدمة أليمة بعد ضياع كل ما يملكون فضلا عن الديون ، واتضح أن أبازيد الخائن كان يساعد هـذا الدجال فى احتياله ليربح معه ، وأن هذا السائح الأمريكى مأجور تآمر معهما : وهو مصرى مثل دور السائح الامريكى وتكلم الإنجليزية ووضع قبعة على رأسه واستأجر غرفة فى هذا الفندق الشهير العظيم ، ليخدع هؤلاء السذج .

إنها كانت خطة مرسومة ، أنجزت فى دقة ونفذت فى براعة ودهاء ، فخدعت وخربت بيت الاغبياء .

هذه القصة قصة حقيقية ، وقعت لاحـد أقاربى ، وقد خسرت مبلغاً كبيراً اقترضوه منى ثم لم يستطيعوا رده إلى إذ

لم يبق لديهم ما يكفى لضرورياتهم ، ولم أكن أدرى بما يعملون من عمل جنونى ، ولم يخطر على بالى ما وقع من احتيال حتى أنقذهم من شر جهلهم وغبائهم ، ومن شر خيانة خادمهم الخبيث الدنىء ، وأنقذ نفسى كذلك من هذه الخسارة .

النقيضان

من أعجب ما رأيت وما سمعت فى حياتى . هو هذان الأخوان اللذان يختلفان فى عملهما ويتجهان فى ميولهما إلى طرفى نقيض ، فأحدهما شديد البخل إلى حد لم يسبق له مثيل ، والآخر شديد الإسراف إلى حد لا يتصوره عقل ، وكلاهما ورث عن أبيه ضيعة كبيرة من أخصب الأرض وأجودها .

أكبر الأخوين هو البخيل الذى حرم نفسه متاع الدنيا والآخرة ليجمع ثروة طائلة ، فعاش كل حياته ليستثمر ويدخر حتى زادت ثروته عن ألف فدان وزيادة .

فهذا المخلوق العجيب . شفيق ، لم يعش فى الدنيا إلا ليجمع ثم يجمع لغيره ، مع أنه لا يبالى بغيره ولا بنفسه ، ولا يعبد إلا المال فلا يعرف خالقه ولا يؤدى واجبه ولا يهتم حتى بأولاده وزوجه ، بل لا يهتم بنفسه ، ويتركز كل وعيه وكل سعيه فى ازدياد الرقم ، فكل همه فى الحياة لذة كنز المال (١) .

---

(١) (كتاب تربية القرآن) .

فالبخل جرثومة فتاكة إذا تغلغلت فى القلب قتلت فيه الرحمة فقسا حتى على ولده ونفسه ، وفضل معبودية المال على راحته وحاجته ، وعلى متعته وسعادته ، بل على شرفه وكرامته ، وعلى دنياه وآخرته .

سطا عشق المال على عقله فسلبه ، وفتن قلبه وخلبه ، وأعمى عينه ، وأصم أذنيه ، وغل يديه ، فأصبح عدواً لنفسه يحرمها الثواب ، ويسعى ما استطاع ليدخر لها العذاب ، إذ كلما عظم كنزه أعظم لها العقاب [والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم : يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون] (التوبة ٣٤ ، ٣٥) فياله من داء عضال يسيطر على القلب الضعيف الإيمان الغافل عن الله واليوم الآخر ، الناسى للموت المتعلق بالحياة .

إن عشق المال قتل الرحمة فى قلبه فقسا حتى على ولده ، إذ كما مرض أحد أولاده ضن بأجر الطبيب وثمن الدواء لينقذه من شر مرضه ولا يبالى بما يهدده من خطر ، ولا يدفعه حب الأبوة وحنانها إلى المسارعة إلى رؤيته ليطمئن عليه ، فقد فقد الحياء كما فقد الشفقة ، وكيف يشفق على غيره من لا يشفق على نفسه ، فإن من ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، أما من رحم غيره فإنه بنفسه أرحم ، إذ من قدم لغيره فإنما لنفسه قدم [وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير] البقرة ١١٠ .

ولشدة عشقه للمال وحرصه عليه كان يضن بثمن ركوب (الترام) فيقف على سلمه ليوفر نصف قرش ، وكان لا ينفق شيئاً من ماله على أولاده فتضطر زوجته أن تؤدى ما يلزم أولادها إذ كانت ثرية ، فإنه ما تزوجها طبعا إلا لثرائها ، لا لجمالها أو حسن خلقها .

وهكذا ظل هذا الغبي حتى الممات يظلم نفسه وغيره : فعاش فقيراً مهيناً محروماً ، ليموت غنياً ملعوناً مذموماً ، وحرم نفسه متاع الدنيا والآخرة معا ، بل إنه سيتعذب فى نار جهنم ليمتع غيره بما ادخر وجمع .

مات هذا الشقى وفارق المال الذى يعشقه مرغماً ، وذهبت أعزى اخته وزوجته ، فسمعت عجباً ، وسمعت زوجته تنتهر ابنها وتنهاه عن البكاء ، وكان لا يزيد سنه على الثانية عشرة : قالت له الأم (الحزينة) ساخرة : لماذا تبكى أيها الأبله ، هل أبوك كان أبا يؤسف على موته ، ويبكى على فراقه ؟ ؟ إنه كان لا يراك ولا يبالى بوجودك ، ولو مت ما بكى عليك ، إنه لم يكن يهتم بمرضك وكان يضن بثمن الدواء وأجر الطبيب لينقذك من الهلاك ، فيالك من غبي ، فضحكت السيدات المعزيات وكف الولد عن البكاء .

والأنكى من ذلك أن هذه السيدة بدأت تقص قصة تزرى بالفقيد لتضحك منه السيدات فقالت : إن فلانة الفقيرة كانت كلما زارتنا تقول لزوجي : أعطني ياسيدي (ريالا) صدقة لوجه الله ، فيشير إليها بقبضة يده مهدداً بالضرب ، وعندما كان هذا الشقي في النزع الأخير ، طلبت منه كعادتها هذا الريال ، فأشار إليها بقبضة يده كما كان يفعل دائما وهو في كامل صحته ، وظلت هذه المرأة تكرر هذا الطلب كل بضع دقائق وهو يكرر بقبضة يده هذا التهديد ، حتى ارتخت يده وظلت ساكنة لا تجيب بقبضتها على سؤال المرأة فعرفوا أنه فارق الحياة .

وما إن انتهت الزوجة من قولها الساخر الهازىء حتى انفجرت السيدات ضاحكات من هذا الوصف المضحك وهذا التهكم المزري ، كأنهن في مسرح يسمعن تهريج الممثلين .

حقا إن البخل جامع للمساوىء والعيوب ، قاطع للمودة من القلوب ، فكم من أولاد مقتوا آباءهم لبخله وتقصيره في واجباتهم وتمنوا هلاكه ففرحوا لموته ولم يطلبوا له الرحمة من الله تعالى ، بل ربما لعنوه وطلبوا له العذاب الاليم في نار الجحيم ، وشر من

ذلك غضب الله وعقابه وعـذاب النفس وحرمانها ما يمتعها فى الدنيا والآخرة .

* * *

أما الاخ الاصغر سمير ، فإنه لا يقل جرما وظلما عن أخيه الاكبر ، لإفراطه فى الإسراف والتبذير وعشق البذخ والترف ، فكلاهما خرج عن القصد إلى طرفى نقيض ، وأفضى بهما الإسراف فى حب المال أو حب الشهوات ، إلى رذيلتين متناقضتين ، فحادا عن الصراط المستقيم ، وكلاهما غفل عن الله واتبع هواه فأفرط وفرط كما قال تعالى [ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا] الكهف (٢٨) .

فكلما (١) حرم القلب سعادة الإيمان بالله ولذة الروح ، ضعفت رغبات المرء المعنوية ، واشتدت رغباته المادية وتركزت فى شهواته الجسدية ، إذ لابد المرء أن يتلذذ ، فإن لم يجد لذة القلب انغمس فى لذة البدن ، وإن لم يذكر الباقية ، تعلق بمتع الفانية ، وقضى حياته فى ترف وقصف ولهو ولغو وكان من المسرفين على أنفسهم الذين يفسدون ولا يصلحون .

---

(١) (من كتاب تربية القرآن) .

فإن مطاوعة النفس الامارة والتمادى فى التمتع بالمتع البدنية من أكل وشرب ولهو وغيره ، إسراف يمقته الله وينهى عنه بقوله : [وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » الأعراف ٣١ .

فاسمع أيها القارىء الكريم ماذا فعل هذا السفيه المتلاف وكيف أسرف على نفسه وبذر ، وكيف انقاد انقيادا أعمى لأهوائه ، فسعى حثيثا لإفلاسه وشقائه .

إنه بنى قصرا تحوطه حديقة واسعة ، وصنع حول بعض جهاتها أقفاصا من حديد وضع فى أحدها أسدا كما وضع فى بعضها قردة ونسانيس ، وفى البعض الآخر شتى أنواع الطيور الجميلة النادرة ، وبنى حوضا كبيرا للسباحة وأضاء مياه بالكهرباء ، وكان يقضى الليالى فى هذا الحوض مع شلة أصدقائه المترفين يحتسى معهم كئوس الشمبانيا والويسكى ، ويرفع صوته بالغناء ترافقه آلات الطرب التى يجلس عازفوها على حافة الحوض ، وقد سطعت الأنوار من مياهه الشفافة كما سطعت من حوله وانعكست متألقة على صفحتها الفضية اللامعة .

كان يقضى الساعات الطويلة حتى بعد منتصف الليل مرددا

(ياليل) وكان صوته جميلا ، وتتخلل الأغانى النكت والضحكات ، والمزاح وعزف الآلات .

أما الإسراف فى الطعام فإنه كان يبدو على بدنه ، ويدل عليه ضخامة بطنه ، فيالها من شهوة ثائرة ، وشراهة مسيطرة ، ويالها من نفس جشعة طماعـــة ، تخضع صاغرة لشهواتها ولا تعرف القنـاعة .

فإن المـال بلا عقل ودين منبع كل الشرور ، وشيطان يغرى المرء بالفسق والفجور ، فيقصر عمره على طرب ولهو ، ويقضى وقتـــه فى قصف ولغو ، ويستشعر كل كـبر وزهو ، ويصبح كـثير الرغبات والنزوات ، جشعا عجـولا فى اللذات ، كسولا فى عمل الخيرات ، ضجرا من أعباء الحياة ، مستهينا بالحـقوق والواجبات.

نعم ! إنه فقد وعيه فظن أنه ملك يملك كنوز قارون ، ونسى ربه فأنساه نفسه ، سطا حب الشهوات والترف على عقله السفيه ، فأراد أن يعيش عيش الملوك ، فاشـترى سيارة كبيرة (لورى) لنقل مايلزم له ولخدمه ولضيوفه ولحيواناته وطيـوره ، من لحم

للأسد وحبوب مختلفة وثمار للطيور وغيرها ، كما اشترى سيارة فاخرة (كاديلاك) تقله من قصره الفخم إلى حيث يريد ، ولا تتقدم خارجة من قصره إلا ويسبقها (موتوسيكلان) يقود احدها (وزير الخارجية) ويقود الآخر (وزير الداخلية) كأنه سلطان زمانه ، ووزير الخارجية هذا هو من يشترى كل لوازم القصر ومن به من خدم وما به من حيوانات ، أما وزير الداخلية فإنه رقيب على إدارة الدائرة الملكية من خدم وحشم ومطبخ وطعام للحيوانات وغيرها .

ظل هذا المتلاف ، يسرف ويهدى ويولم ويقرض ولم يبال بشر عواقب الإسراف حتى فقد ماله وهوى إلى حضيض الفقر وذل الدين ، فمن يديم التبذير لابد أن يصل إلى الإفلاس ، كمن يديم الهدم لابد أن يأتى على الأساس .

استيقظ الشقى من حلم الترف والبذخ فوجد نفسه ذليلا مدينا ، بائسا حزينا ، فأشفقت عليه أخته ووظفته فى ضيعتها ناظرا للزراعة ، فعاش المسكين فى تقشف ونصب بين الفلاحين فى القرية ، فلا مرح ولا ترف ، ولا كهرباء ولا شامبانيا وويسكى ، وقضى بقية حياته فى آلام وحرمان المرض ، فانقلبت

لذاته إلى عـذاب وانقلب بذخه وسرفه إلى حرمان ، كما انقلب كبره وزهوه إلى هوان .

فتأمل أيها القارىء الكريم هذا التباين الصارخ بين الأخوين ، وهذا التناقض الشامل فى الصفتين ، هـذا يقفز إلى سلم الترام كالباعة الفقراء ليوفر قرشا ، وذاك تقله سيارة فاخرة يسبقها وزيران على (موتوسيكل) وهو مضطجع بكبر تتلألأ الجواهر فى أصابعه ، وتتدلى التحف الماسية والذهبية على بطنه الكبير المنتفخ فى سلسلة ساعته ، وهذا يرتدى ملابس رثة وحذاء باليا ، وذاك يرفل فى الحرير ويتحلى بالجواهر الغالية ، وهذا يضن على نفسه وعلى ولده بالضروريات ، وذاك يسرف على نفسه وعلى صحبه فى اللذات ، وقد أغضب كلاهما الله تعالى بالإفراط والتفريط واستحقا عقابه لخروجهما على حدوده وتقصيرهما فى حقه وعصيانهما لأمره [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا] الإسراء (٢٩) وقوله [والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما] الفرقان (٦٧) .

ولا يفوتنى أن أذكر (نكتة) ظريفة قالها هذا الابن المبذر عندما طلب أبوه سجادة الصلاة ، وهو لم يكن يقيم الصلاة ولم يصل ولا مرة واحدة فى حياته ، إنه أراد الصلاة ليتزلف إلى الله

ساعة الشدة قبل الحكم عليه بالسجن لأن تهمة السرقة قد ثبتت عليه ، فقد كان هذا الأب محتالا يخون من ائتمنه ويخدع من وثق به وشاركه فى عمل مالى ، فيأكل أموال الناس بالباطل ويراوغ ويماطل ويسعى ما استطاع لإثبات براءته فى فطنة واحتيال وخداع وكان ينجح فى محاولته النجاة كل مرة ، ولكن هذه المرة أحاطت به التهمة ولم يجد حيلة تنقذه ولا خدعة تنجيه من خدعته كالمعتاد ، فحكم عليه بالسجن عدة سنوات ، وقبل أن يتوجه إلى المحكمة طلب كما قلنا سجادة الصلاة ، فضحك ابنه سمير ونظر إلى السماء قائلا : حتى تحاول أن تخدع الله وتحتال عليه .

الوالدان يقودان إلى النعيم أو الجحيم

اخترت إحدى المدارس الفرنسية لتعليم بناتى ، لما رأيت بها حينذاك من حكمة فى التربية ومن رقة وحسن معاملة ، ومن أدب واحتشام فإن هذه المدرسة تفرض على البنات أن يلبسن ملابس بسيطة بعيدة عن التبرج ، وترغم البنت إذا ما بلغت سن العاشرة على أن ترتدى رداء طويلا يحجب معظم الساق وأن تلبس الجوارب الطويلة السميكة ، والويل لمن يبدو عليها شىء من التجمل والتزين ، فإن الراهبات يغيرن هذا المنكر بأيديهن ، فإذا لمحن شيئا من الأصباغ على الوجه غسلته ، وإذا رأين تصفيفا وتجعيدا فى الشعر وضعن هذه الرأس المتجملة تحت الصنبور ، وإذا وجدن حلية على الصدر أخذنها ثم رددنها إلى منزل الفتاة :

ومن عظيم حكمة هؤلاء الراهبات أن يراقبن البنات حتى فى الاستراحة وهن يلعبن فى الحديقة ، وألا يسمحن لبنت أن تنفرد بأخرى خوفا من أن تسر إليها من الكلام مالا يليق بالأدب والحياء ،

فإذا ما ابتعـــدت بنتان أو ثلاث عن بقيـة البنات ، أسرعت إليهن جاسوسة تتسمع ما يقلن وتراقب ما يفعلن وأمرتهن ألا يلعبن إلا جماعات .

وهكذا أرسلت بناتى إلى هذه المدرسة التى لاتعلم الدين الإسلامى، وأنا مطمئنة القلب لأنى أعلم أن الوالدين هما اللذان ينشئان الولد على التقوى والفضائل ، وأن « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » كما قال الرسول ﷺ .

وعندما طلبت من الرئيسة أن تسمح لبناتى بصلاة الظهر تعجبت أشد العجب من هذا الطلب وقالت : إنى فى هذه المدرسة منذ خمسين عاما ولم تطلب منى خلال كل هذه المدة ، بنت من المسلمات ان يسمح لها بالصلاة ، فياللفضية ، كأن المسلم لايعرف الصلاة ولم يؤمر بها ولم يتشرف بالمثول بين يدى الله .

لم تر الراهبة تلميذة مسلمة تصلى فى بحر خمسين سنة، وذلك لأن جل البنات أو كلهن من أسر الطبقة الراقيـــة المترفة المتفرنجة التى لا تكترث بالدين ولا تعرف العربية، فكيف تطلب الصلاه من لم تعرف ولم تر الصلاة فى بيتها ، بل كيف تستطيع الصـــلاة وهى لا تعرف

اللغة العربية لأنها لا تسمعها فى البيت كما لا تسمعها فى المدرسة ، إذ تلازمها فى بيتها مربية إفرنجية لا تكلمها إلا باللغة الفرنسية أو الانجليزية .

لقد رأيت فتاة من هذه الأسر المتفرنجة ، تاقت إلى الصلاة وودت أن تحفظ فاتحة الكتاب ، فلم تستطع قراءتها إلا بالأحرف اللاتينية ، لأنها لم تتعلم النطق بالأحرف العربية ، وهذا لاستخفاف أهلها بالإسلام واللغة العربية ، فهم يعنون أشد العناية بتعلم اللغات الاجنبية ، ويهملون بل يزدرون اللغة العربية ، ويتخذون لأولادهم المربيات الإفرنجيات بأجور باهظة ، يعشن معهم فى بذخ وترف ، ولا يفكرون ولا يخطر على بالهم أن لهم قرآنا يجب أن يقرءوه ويفهموه ، وأن لهم دينا يجب أن يتعلموه ، والذنب فى ذلك ذنب الابوين الفاسقين المجرمين لاذنب المدرسة ، ومايثبت ذلك هوأن بناتى نشأن على الإسلام الصحيح وهن فى هذه المدرسة ، وأقمن الصلاة وصمن رمضان منذ سن العاشرة ، وتمنين حج بيت الله. وتوسلن إلينا ضارعات باكيات ، فلما وعدتهن بالحج فى السنة القادمة. واقترحت عليهن الاختمار بعده ، قالت لى إحداهن وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، بل نختمر منذ اليوم لان الخمار من فرائض الإسلام لامن فرائض الحج ، فلماذا إذن نرجئه إلى ما بعد عودتنا من الحج ؟؟

هذه ابنتى التى دخلت المدرسة الفرنسية فى سن الخامسة تقول ذاك ، وتلك ابنة تدرس فى مدارسنا العربية سمعتها تقول لأمها وهى فى سن السابعة عشرة : لن أذهب معك إلى الحج ياوالدتى لانى أخشى بعد عودتى أن تحرمونى التجمل والتأنق والأصباغ وأن تأمرونى بالاختمار .

وكم عجبت ودهشت عندما رأيت الأم تضحك من هذا الكلام الذى يدل على الجهل بالدين والبعد عن الله وعن التقوى ، فلوكنت مكانها لانهمرت دموعى حسرة وحزنا وندما على مافرطت فى جنب الله بتقصيرى فى تربية ابنتى على طاعته .

فانظر إلى هذه الأمومة القاتلة التى تقذف بابنتها بلا رحمة إلى أحضان الشيطان ، فتزينها وهى فى سن الخامسة عشرة وتصبغ وجهها وجفنيها وشفتيها ، وتلبسها الرداء الضيق الذى يصف فى دقة أعضاء بدنها ويكشف عن لحمها ، ثم تقول لها مزدهية هذه الجاهلة المجرمة : ما أبدع الأصباغ على وجهك الجميل وما أجمل وأروع الرداء الانيق على جسمك الرشيق ، إنك ستفتنين الرجال بجمالك ودلالك ، وسوف يجن كل من رآك منهم إعجابا .

فياحسرتى على الإسلام والاحتشام ، والويل لهذه البنت الشقية

التى نكبت بمثل هذه الام وهذا الاب الذى لا يستنكر المنكر بل يرضى عما نهى الله تعالى عنه، وأمر كل مسلم بأن ينهى عنه ، هذا الاب الذاهل المستخف الذى ينظر إلى تبرج ابنته مفتونا ويغازلها ويلاعبها سعيدا بفسقها وعدم حيائها .

إن الشيطان لايستطيع أن يدفع إلى الضلال والفجور كما استطاع هذان الوالدان أن ينشئا بناتهما على الخلاعة والرقاعة والتبرج ، وعصيان أوامر الله عز وجل فى القرآن بلا خوف ولا حياء .

نعم . إن إبليس بمكره ودهائه لا يجارى الآباء والأمهات براعة ومهارة فى الإغراء والحث على الفساد ، إن شياطين الإنس أقوى وأقدر من شياطين الجن وأحذق منهم فى ترويض الناشىء الغض على الخضوع لسلطان الهوى والاستخفاف بأوامر الله والجرأة على عصيانه والإنغماس فى الشهوات واللذات .

فإن الطفل يولد على الفطرة وأبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه كما قال الرسول ﷺ ، والطفل كذلك يولد على الفطرة ، ساذجا طريا قابلا للتكوين والتشكيل ، وأبواه يفسدانه أو يصلحانه و وينشآنه على التقوى أو على الفجور .

ففى استطاعة الوالدين أن يجعلاه ملكا أو عبدا ، ملكا ظافرا يسحق قصوره وعيوبه ، ويتغلب على أهوائه ويقهر سلطان

نفسه ، أو عبدا ذليلا يتخاذل أمام الصعوبات ويخضع صاغرا لاستبداد الشهوات ، ولذلك قال تعالى « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » التحريم ٦ » .

نعم قوهم شر حنانكم وإهمالكم ، وأنقذوهم من شر جهلكم وجهلكم وإضلالكم ، وارحموا طفولتهم وسذاجتهم من شيطان إغرائكم وإفسادكم ، إنهم أمانة فى أيديكم فلا تقصروا فى رعايتها وهدايتها إلى الفلاح فى الدارين .

« فكم (١) من جاهل أفسد ولده بتدليله وتغاضيه عن سيئاته وهفواته ، فكان قاسيا برحمته ، عدوا بحبه وعطفه مجرما بحنانه وضعفه ، إذ ترك ولده يفترسه الداء ، ليرحمه وينقذه من مرارة الدواء ، فهل هذا حب ورأفة أو كره وغباء ؟؟

حقا إن من القسوه لرحمة ، وإن من الرحمة لقسوة ، فكم من والدين يأمرون أولادهم بالمنكر وينهونهم عن المعروف فيعودونهم الفجور والاستخفاف بأوامر الله وينشئونهم على الرذائل ويبعدونهم عن الفضائل ، فهل فوق ذلك إجرام ، وجرأة على ارتكاب الحرام . ؟ » فلقد رأيت أبا من هؤلاء يلوم ابنته ويقرعها ، على

---

(١) من كتاب نعمة القرآن (المال والبنون) .

التصدق حيث يجب أن يمدحها ويشجعها ، كما رايت فتاة تجاوزت العشرين وتخرجت فى المدارس المصرية التى تعلم القرآن واللغة العربية ، رفضت الوضوء بالماء وتيممت بمسحوق (البودرة) لئلا تزيل وتفسد أصباغ وجهها ، فهل هذا هو مقدار ما يتعلمه الأولاد من الدين الإسلامى من الوالدين المصليين الحاجين لبيت الله ؟ وهل يجوز التيمم من أجل المحافظة على أصباغ الوجه وبمسحوق البودرة ؟ وهل امتازت هذه الفتاة الشقية بنت المسلمين الحاجين عن تلك الفتاة التى حفظت فاتحة الكتاب بالأحرف اللاتينية ولم تماثلها جهلا وبعدا عن الإسلام وعن القرآن ؟ ؟

إن تلك الشقية التى نكبت بأم متفرنجة متبرجة تأمرها بالتبرج لتخرج معها أنيقة وتنهاها عن الصلاة لتحافظ على الأصباغ وتصفيف الشعر قد تساوت مع التى نكبت بأم جاهلة تعصى أوامر ربها لتتبع هواها بالرغم من صلاتها وحجها ، فكل منهما جاهلة عاصية فسدت وأفسدت وضلت وأضلت فشقيت وأشقت .

هذه الأم الثرية حرم الباشا الوزير ، التى أنجبت عدة أولاد فلم ترعهم ولم تعبأ بهم وتركتهم لمربية إفرنجية فنشئوا لادين لهم ولا أخلاق ولا خلاق لهم فى الآخرة ، كما نشئوا لايعرفون شيئا

من اللغة العربية حتى حفظت واحدة منهم فاتحة الكتاب باللاتينية كما قلنا ، هذه أم نخلت عن الأمومة كما تخلت عن الإسلام وأعرضت عن القرآن فلم تقض وقتها فى أقدس الواجبات نحو ربها وأولادها ، ولم تحاول أن تتعلم شيئاً من اللغة العربية وأن تفهم آية من آيات القرآن الكريم لتملأ قلبها نوراً وعلماً وتملأ حياتها لذة ونفعاً ، فظلت فى ظلام الجهل ثم ادعت بعد ذلك أنها تشعر بضجر من حياة البطالة والكسل والترف ، فلجأت إلى لعب الميسر مع مثيلاتها لتنجو من السأم ، تصورما ذا فعل بها وبأولادها هذا الترف وهذا الإعراض عن القرآن ، وإلى أين قذف بها الاستخفاف بأقدس الواجبات .

إن صاحبة هذه النفس الأمارة الطليقة التى لا تطيق صبراً عما يلذ لها ، ولا تكف أبداً عما يمتعها ويلهيها ، قالت لى مرة فى زهو وبلا حياء : إنى لا يهمنى فى الحياة إلا أن أكون أنيقة رشيقة مصففة الشعر مصبوغة الوجه أنيقة الملبس ، ولا يسعدنى ويلهينى شىء فى الوجود إلا أن أتجول فى المتاجر والحوانيت لأرى مافيها من جديد ومن جميل ، وإذا لم أجد سيارتى حاضرة أو وجدتها عاطلة ، استأجرت (تاكسى) لأتجول جولتى المفضلة واستمتع

بما أراه ، فقلت لها كيف تشترين فى جولاتك كل ما يعجبك مما ترين فإن هذا كثير وتبذير ، قالت : إنى أرى وأتأمل جمال ما أراه ولكنى لا أشترى شيئاً إلا نادراً ، إنما أنا أتنزه فى الحوانيت بين السلع كما يتنزه غيرى فى البساتين بين الأزهار وتحت الأشجار .

فيا للعجب لهذه الأم الفاسدة الشاردة التى تهرب من بيتها ومن واجباتها صباحاً ومساء ولا تعنى بأولادها ولا تعبد ربها ولا تحاول أن تعرف دينها ، بل تقضى وقتها الرخيص فى قصف ولهو ومرح ولغو ، لتملأ حياتها بالإهمال والآثام ، وقد كانت تستطيع أن تملأها بعمل الصالحات الباقيات ، وأن تنقذ أولادها ونفسها من الضلال والهلاك ، ولكن هذه الأم المستخفة بالدين وذاك الأب الذى لا يستنكر المنكر ، قد شاهدا واحتملا فى الدنيا قبل الآخرة ، عقاب الله على تقصيرهما فى تربية بناتهما تربية دينية ، وذاقا أليم عاقبة استخفافهما بعصيان أوامر الله سبحانه وتعالى ، كما سيجىء فى مقال (خطر الاختلاط والتبرج) .

إنهما ضلا فأضلا ونشراً من حولهما الفساد بأولادهما وأحفادهما واتبعاً الهوى اتباعاً أعمى كما وصفهما تعالى فى قوله « أرأيت

من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » الفرقان ٤٣،٤٤.

وهناك آباء وأمهات اتخذوا أولادهم آلهة من دون الله ، لا يعصون لهم أمراً ويقدمون رضاهم على رضاه ، لقد قالت لى أم من هؤلاء الأمهات اللاتى يعشن ليعبدن أولادهن ، ولا يسعين لرضا ربهن كما يسعين لرضاهم وإسعادهم فى الدنيا فقط ، أما السعادة الأبدية فلا يعبأن بها ولا تخطر لهن على بال ، قالت لى فى بلاهة وسفاهة : ما رأيك فى ذهاب البنات إلى (الكوافور) أى الرجل الذى يصفف الشعر ويزين الوجه بالأصباغ ، فقلت إن هذا العمل حرام وخروج على أوامر الإسلام ، فأجابت : إن الكوافور أو المزين أصبح الآن عندنا كالماء والخبز وزيادة ، فقلت : إنكم تموتون إن لم تأكلوا الخبز ولم تشربوا الماء ، أما إذا لم تقترفوا معصية الذهاب الى هذا الرجل فإنكم لا تموتون بل تنجون من غضب الله وعقابه ، ثم قالت لى : ألا يجوز الوضوء والاغتسال بمسح خفيف على الرأس لا يبلها فلا يفسد تصفيف الشعر ؟ فقلت إن التى

تواظب على تصفيف شعرها وصبغ وجهها ، من المحال ان تواظب على الصلاة لأنها لاتستطيع الوضوء والاغتسال كما ينبغى لتحافظ على زينة شعرها ووجهها ، بل إن من تتبرج وتصر على التبرج ، أضاعت صلاتها وثوابها . لإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما أكد الله تعالى فى كتابه الكريم ، ومن لم تنهه . صلاته فلا صلاة له كما أكد الرسول ﷺ أى ان هذا الإصرار على منكر التبرج يبطل الصلاة ويحبط أجرها ، بل قد يبطل غيرها من العبادات .

قلت ذلك وأنا أوقن بأن كلامى لآ نتيجة له ولن تقتنع مهما قلت لها وأكدت قولى بآيات وأحاديث ، لأن ايمانها ضعيف ، ولأن عقلها سخيف ، ولأن الهوى أعماها ، وزين لها سوء عملها فأغراها « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » (محمد ١٤) .

واعجب لهذا الاب المؤمن الذى يقيم الصلاة الحاج لبيت الله ولكنه يرضى له ايمانه أن يعصى أوامر ربه ، فإذا قلت له إن بناتك قد تمادين فى التبرج ويانين ما نهى عنه الله تعالى فيجرؤن على اغضابه ، قال لك فى استخفاف : دعهن يتمتعن بشبابهن

ولا يحرمن جمال الدنيا ولذاتها ، ثم لا بأس من عقاب الله تعالى بعد ما يتمتعن بما يردن من متع الشباب وحلاوة الحياة .

فياللتقوى ويالله الإيمان ، انه يقدم الدنيا على الآخرة كما يقدم اللذة التافهة الوقتية ، على نعيم الجنة الابدية ، وعلى الكرامة والمنزلة عند الله وهو يعرف قوله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات ١٣) فهل هذا ايمان صادق ألا يتقى غضب ربه ويسعى لطاعته ، من أجل حقير تمتع ابنته بل يستخف بغضبه ورضاه ، ليحقق لابنته ما تتمناه . وليرضى هواها وهواه . ما هذا الإيمان الضعيف الذى يعجز عن ردع صاحبه عما يغضب الله ؟ ؟

* * *

والآن نعود الى المدرسة الفرنسية . وان أنس فلن أنسى ما قامت به ابنتى الكبرى من أمر عظيم وهى فى الرابعة عشرة من سنيها . كانت البنات يقرأن الدرس الاخير فى الصحائف الأخيرة من كتاب التاريخ الدينى ، فسمعت مالا يليق بالرسول

الكريم ﷺ ، فما إن جاء دورها في المطالعة حتى صرخت قائلة : لا أستطيع قراءة مثل هذا الكلام البذيء ، فأجابتها الراهبة قائلة : كما تريدين ، إجلسي ولا تقرئي ، فقالت ابنتي : ولا أطيق أن أسمعه ، فاحمر وجه الراهبة وقالت : ما ذنبي في ذلك يا بنيتي ، فإني لم أؤلف هذا الكتاب ، فأجابتها ابنتي : كان يجب عليكم أن تحترموا دين البلد الذي آواكم وألا تهينوا من احترمكم فلجأ إلى مدارسكم ، ثم انتزعت من آخر الكتاب هذه الصحائف المدنسة ومزقتها إربا وألقت بها على الأرض ، فحذت حذوها كل التلميذات المسلمات وكن ثلاثة أرباع الفصل ، وفعلن مثلما فعلت .

وكم فرحت لما اتت أبنتي من عمل عظيم جريء خصوصاً عندما علمت منها بعد عدة سنوات ، أن هذا الكتاب منذ ذاك اليوم ، لم يوزع على التلميذات إلا بعد نزع هذه الصحائف من آخره ، وتصورت كم قرأت هذه الصحائف قبل ذلك أفواه تلميذات مسلمات ، أفواه فاطمة وزينب وعائشة ، وكم سمعتها آذان خديجة ونفيسة وغيرها ولم يحركن ساكنا ، إذ لم يشعرن بما يجرح قلوبهن المجردة من حب الإسلام وحب

الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن البيت خلا من هذا الحب المقدس فخلت منه قلوبهن .

فالبيت هو الذى يفسد أو يصلح الأولاد « ومن المحال أن يستنكر الولد المعاصى وهو يعاشر من يقارفها ، وأن يحب دينه ويطيع أوامر ربه وهو لايعرفها ، ومن المحال أن يعرفها وهو يعاشر من يجهلها ويخالفها .

فالطفل يقلد كل ما يسمعه وكل ما يراه ، والحسن عنده ما صنع والداه ، والقبيح عنده ما تركاه : فالقدوة تفعل فى النفس مالا تستطيعه سائر وسائل التعليم والإرشاد .

فما أحقر الاب الذى لا يخجل من أنه يدفع بابنه الى التمرغ فى القاذورات ، وأنه يعطيه ثمن ما يدنسه من جيف منتنة وفضلات ، ولا يستحى من أنه يرضى عن قذارة ولده ولايستنكر الدعارة ، وذلك لأنه قذر مثله فلا يعاف القذارة . فالقذر المتمرغ فى الوحل لا يخشى الزلل . كما أن الغريق لايخشى

---

(١) من كتاب نعمه القرآن (المال والبنون).

البلل ، فالويل له من عقاب الله على ضلاله وإضلاله . وعلى الاستخفاف بتربية ولده وإهماله . وعلى عصيان قوله تعالى [يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » (التحريم ٦) .

الإيمان الضعيف

أما هذا الزوج الذى يشبه إيمانه إيمان ذلك الأب ، فإنه يقدم التقاليد والعادات على أوامر الله فى القرآن ، ويدعى أن التبرج أصبح عادة مألوفة وتقاليد لا بد منها ولا عيب فيها ولا ذنب ، وأمر القرآن بالاحتشام إنما كان يوافق عصر نزول القرآن لا عصرنا هذا ، والدنيا فى تطور مستمر ، أى ينبغى أن يتطور القرآن وتتغير بعض آياته وأوامره ليوافق المدنية ، بل ليوافق الإباحية ، إن هذا القول يدل على البعد عن الله والبعد عن القرآن الكريم بالرغم من الصلاة والصوم والحج ، كما يدل على أنه لا يستنكر المنكر لأنه يأتيه ، ولا يستنكر عصيان ربه لأنه يعصيه .

فليس من الإيمان بالقرآن أن نطيع بعض آياته ونعصى بعضها ، أى نطيع ما يوافق هوانا ونعصى مالا يوافقه ، كأن بعض آيات كتاب الله الحكيم لا نستصوبها ولا تعجبنا فلا نحترمها ولا نؤمن بها ، وكأنه سبحانه أخطأ فى حكمه وأمره ، وكأنه نسى أن

ينزل آيات جديدة تبيح بعض الرذائل وتلغى بعض الفضائل لتوافق تدهور العصر الحاضر ، ولتسهل طاعة أوامرها على كل فاجر .

إن الذى لا يطيع كل أوامر القرآن ليس من أهل القرآن ، والذى لا يخضع لكل أوامر الله تعالى لم يؤمن به حق الإيمان ، وكل إيمان لم يردع عن كل الرذائل ويدفع إلى كل الفضائل إيمان ناقص ضعيف عاجز ، والإيمان الصحيح القوى لا يعجز عن ترويض أى نفس على التقوى وقمع الهوى وقهر أى شهوة .

أما إذا استهان المرء بأوامر ربه ، واستخف بعواقب غضبه ، ولم يبال باحتقاره حقارته وفقده كرامته ، ولم يعبأ بسعادة رضاه ولم يتمن جنته ، فإن صلاته وصومه وحجه لا تبرهن على صدق إيمانه ، إذ من لم تنهه صلاته فلا صلاة له كما أكد الرسول ﷺ وكما أكد الله تعالى فى قوله « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

فلا بد للمؤمن الذى يقيم الصلاة أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر وإلا فلا صلاة له ، ومن لا صلاة له لا إيمان فى قلبه ، ومن لا يستحى

---

(١) العنكبوت ص ٤٥ .

من ربه أن يراه حيث نهاه ، ومن يجرؤ على أن يقدم هواه على رضاه ، لم يعرفه ، لأن الطاعة هى آية الإيمان بالله ، كما أن عصيان أمر واحد من أوامره آية الاستخفاف برضاه ، فلايؤمن به ويقدره حق قدره إلا من خشيه فاتقاه .

أما هذا الإيمان المزعوم الذى يرضى عن المعاصى ويتغاضى عن الهفوات ، ويخضع صاغرا للشهوات ، هذا الايمان المستخف الذى يدعو صاحبه إلى الصلاة والصوم والحج أحيانا ، ولكنه ، لاينهاه عن العصيان ، ولا يأمره بالطاعة والإحسان ، فإنه إيمان ضعيف لايقاوم الإغراء ، ولا يعارض ولا يحارب الأهواء ، إيمان عاجز لا يؤدى واجبه ، فلا ينهى عن المنكر ولا يحذر عواقبه ، إيمان تافه لا يجدى ولا ينجى صاحبه .

إن الإيمان الصادق قوة تسيطر وتسود ، وزمام يردع ويدفع ويقود ، إنه إيمان صارم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، إيمان قدير بليغ يقنع ويحث على الخير ، إيمان لا يذل لهوى ولايرضى عن أية معصية وأى شر ، قال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين « والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا

لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله . ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » آل عمران ١٣٥ .

أى انهم ما فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم إلا فى فترة غفلة عن ربهم ، وما إن ذكروه حتى ندموا فاستغفروا لذنوبهم « ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » هذه الجملة تؤكد أن المؤمن من المحال أن يصر على معصية ربه وهو يعلم أن ذلك يغضبه ، بل يسارع إلى التوبة تواً نادما مستغفرا ، وهذا صريح فى أن الإيمان الصحيح لابد أن يردع صاحبه عن الإصرار ويدفع به إلى الحرص على طاعة الله والحذر من عصيانه والمسارعة إلى التوبة من قريب ، كما أكد تعالى فى قوله « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » الأعراف ٢٠١ .

نفهم من قوله تعالى (تذكروا) أنهم كانوا غافلين ، فلم يتعمدوا الذنب ولم يصروا عليه وهم يعلمون .

وهذه آية كريمة تؤكد أن المؤمن لايعصى ربه ويتقى غضبه وحسب ، بل إنه ينفر ممن يعصى الله ولا يوده ولو كان أقرب وأحب الناس إليه ، فاسمع لقولة تعالى « لاتجد قوما يؤمنون بالله

واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » المجادلة ٢٢) .

فالمؤمن الذى يحترم أوامر ربه من المحال أن يود من يعصيه ، والمؤمن الذى يستنكر المنكر لابد أن يبغض من يأتيه ، والمؤمن الذى يتقى الله لابد أن ينفر ممن لايتقيه ، أى من المحال أن يصر المؤمن على المعاصى ، كما أنه من المحال أن يود ويرضى عن العاصى ، وهذا ما أكده تعالى لرسوله ﷺ بقوله (لا تجد) أى إن المؤمن الذى يود الفاجر ولا يستنكر المنكر وفاعله غير موجود .

إن صادق الإيمان لا يحب ولا يحترم إلا من هو جدير بالحب والاحترام ولو كان غريمه ، ويحتقر الحقير ويبغض البغيض ولو كان قريبه ، لأن العاقل لا يحب بغريزته ، بل يحب ببصيرته ، فلا يبتسم لأحد حيث يجب التقطيب ، ولا يثنى عليه حيث يجب التأنيب ، فلا يرضى عن المنكر الا من يأتى المنكر فلايستنكره .

فوا عجبا لك يا إيمان الحرية والمدنية ، وويل لك يامن تؤمن إيمان الإباحية ، الذى يستخف بأوامر ربه ورضاه ، ويستهين

بغضبه ولا يخشاه ، ولا تأمره صلاته ولا تنهاه ، انظروا أيها الناس إلى إيمان هذه المرأة فى قصر ردائها وإصباغ وجهها والكشف عن لحمها ، وعدم حيائها،وقوة إيمان هذا الزوج الذى يسمح لزوجته بأن ترقص فى حانة ليلية فى ملابس تزرى باحترامها ، وزينة تزرى بإيمانها وإسلامها .

أى إيمان هذا الذى يتوارى خلف هذا التهتك وهذه الموبقات أى إيمان هذا الذى يرضى عن المنكرات ولا ينهى عن السيئات ، أى إيمان هذا الذى ينام ويهدأ بينما تثور الشهوات ، ولايستيقظ برغم القفزات والهزات والكبوات ، أى إيمان هذا الذى يبيح الهفوات والعثرات ، لقد أزرينا بالإيمان وسخرنا من عظمته وقوته ، وحططنا من قدره ومكانته ، بأن ادعينان الايمان ونحن نأتى ما ينادى بكفرنا بكتاب الله ونعمته ،

* * *

إن أعمال الناس الآن لا تدل على الايمان ، بل تدل على نسيان الله واليوم الآخر ، إذ يسعون للدنيا جاهدين ويعملون لها مستميتين ، ولا يسعون للاخرة سعيها ، ولا يجاهدون كما ينبغى لها .

نرى صلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وصياما لا يعود الصبر على طاعة الله وعما يغضبه ، وزكاة لا تزكى النفس ولا تثبت الإيمان ، وحجا لا فائدة منه ولا توبة بعده ، وهذا ينافى ما أكده الرسول ﷺ فى قوله : (الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل) أى لابد أن يثبت العمل الصالح وطاعة الله تعالى ، وجود الإيمان فى القلب ، إذ من المحال أن يكون إيمان بلا تقوى ، ولا بد من ثمرة للإيمان الموجود فى القلب وإلا فلا وجود له ، فإذا وقر الإيمان فى القلب لا يبيح لصاحبه أن يصر على عصيان ربه ، ولا يكف عن حضه على طاعة أوامره وعمل الصالحات ، أما إذا اجزأ المرء على الإصرار على ذنبه ، ولم يتب من قريب إلى ربه ، برهن على أنه لا إيمان وقر فى قلبه .

إن مقدار الإيمان فى القلب بمقدار التقوى ، فمن اتقى الله حق تقاته ، هو الذى آمن به حق الإيمان ، أما الإصرار على أى عصيان ، فإنه يدل على ضعف أو عدم الإيمان .

فاسمع يا قارئى الكريم ما سمعت من عجب ، فهناك سيدة (مؤمنة) مثقفة مهذبة تشترط فيمن يتقدم لخطبة ابنتها ، ألا يقل دخله عن مائة جنيه شهريا وأن يمتلك سيارة ، أما الشرط الثالث فإنه (يجيد الرقص) .

قد كنت أنتظر أن يكون الشرط الثالث ، إقامة الصلاة ، بل يكون هذا الشرط الأول لا الأخير ، فيا للعجب ، هذا (إيمان) أم تصلى وتصوم وتحج ثم تطلب الرقص وتشترطه فى زواج ابنتها ، وذاك (إيمان) زوج حاج يصلى ويصوم ثم يبيح الرقص لزوجته فى ملابس السهرة والتبرج والعرى بين الرجال ، ويتناسى قوله تعالى « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » (النور ٣١) ثم يتغاضى عن أن كل من يرقصن يضربن بأرجلهن ليعلم بل ليثرن بما يبدين من زينتهن ، فكل من ترقص تهتز كل أعضائها ، إنها تقفز فيقفز نهداها وردفاها ويتمايل خصرها النحيل ، ويتأود قوامها الرشيق ويتطاير شعرها اللامع إنها لم تبد زينتها وحسب ، بل هى أرقصتها وهزتها لتسترعى إليها الأنظار ، ما أصدق من قال : من رقص نقص .

نعم . من رقص نقص عقله وقدره ، كما نقص شرفه وأجره ، إنه يقفز كالقردة ويدور ويتلوى كالثعبان ، والأنكى من ذلك أن الراقصين لابد أن يكونا من الجنسين ، فيضم الراقص جسم الراقصة إلى صدره ويضغط على ظهرها العارى ولحمها الناعم بيده اليسرى ، كما يضغط على يدها بيده اليمنى ، فيداعب شعرها وجهه ، ويلامس خدها خده ، ويلاصق صدرها صدره ، إنه يعانقها

ويستمتع أنفه بشذا عبيرها كما يستمتع ذراعاه بارتجاج لحمها ، وتمتزج أنفاسه بأنفاسها .

أى إغراء هذا على الحرام والآثام ، أى فخ هذا ابتدعه الشيطان ، وأى عصيان هذا لأوامر القرآن ، إنه تعالى أمر الرجال والنساء بأن يغضوا من أبصارهم ، فكيف بالعناق وتلامس الجسدين واحتكاك اللحمين واصطدام الصدرين ، وتلاصق الخدين ومناجاة العينين وإغراء ابتسام الشفتين المصبوغتين . فما أبرع الشيطان فى ابتداع فنون الإغراء .

إنى لأعجب لاستخفاف مؤمن برضا ربه ، وعدم اكتراثه بغضبه ، فهل رضا الله شىء تافه لا يتمناه ، وهل غضب ربه شىء هين لا يخشاه ، وهل من الإيمان بالله أن يقدم المؤمن أى شىء على رضاه ، وأن يغلبه هواه على أمره ويسيطر على كل قواه ، والله تعالى يؤكد فى هذه الآيات أن المؤمن ينهى نفسه عن هواه ، فقال سبحانه : [يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى] (النازعات ٣٥ — ٤١)

واسمع ياسيدى ما هو أعجب من ذلك ، فإن إحدى من تدعى الإيمان الذى يدعيه الناس الآن ، هـذا الإيمان الذى انحطت قواه حتى انكمش ولزم السكوت والسكون فلم يستطع دفعا ولا ردعا ، ولم يبال بالعواقب والعقاب ، هذا الإيمان الذى يخضع صاغراً للهوى ولا يعارض ولا يقاوم ، كما يخضع صاغراً للتقصير ولا يحاول ولا يبادر ، جاءت لتسمع درساً من دروسى الدينية ، بل جاءت لتلهو وتتهكم ، لا لتنتفع وتتعلم ، وبعد ذلك قالت لجارتى ما نقلته إلى وهو أنها لن تعود بتة إلى سماع دروسى ، فدهشت وظننت أنى أخطأت فى قولى أو أسأت ، ولكن زاد عجبى ودهشتى عندما سمعت ما قالته لجارتى ، قالت : لن أعود ثانيـة لسماع درس من دروس هذه السيدة لأن كلامها مقنع مفحم ، فلقـد أقنعتنى بالرغم من أنى لا أريد الاقتناع ، لأنى لا أريد الاهتداء ، فلو واظبت على سماع دروسها لاهتديت ، وأنا لا أريد الهـدى الذى يحرمنى ما تعودت أن أستمتع به .

إنها هربت من الهدى فهربت من النجاة ، إنها اجتنبت الفهم لتظل فى ظلمات الجهل والضلال فبعدت عن الله يبعدها عن القرآن

فما أكثر من يزعم الإيمان بالله وهو لا يخشاه ولا يعبد إلا هواه ، وما أقل من يؤمن إيمانا صادقا يملك قياده ويأمره وينهاه .

أما هذا الإيمان الذى سمعت عنه ما أدهشنى وأبكانى . فإنه إيمان قوى سيطر على صاحبه وأفعم قلبه بالصبر حتى استطاع احتمال ما لا يحتمل غيره ، فى سبيل رضا من يجل ويحب ويخشى غضبه .

إن حب الله تعالى وتمنى رضاه ؛ جعل هذه السيدة المؤمنة تحتمل الآلام المبرحة خضوعا لأمر مولاها ؛ فلم تسخط ولم تتبرم بقضائه ولم تطلب منه الشفاء ، بل طلبت منه أن يزيدها ألما ليزيدها أجراً ، قائلة : إذا كان هذا الألم يرضيك عنى يا مولاى فزدنى منه لأحظى برضاك ، إنى صابرة راضية عن كل ما تأمر به وعن كل ما تريد .

وكانت ترفض عمل (حقنة المورفين) التى تنقذها بالنوم ليلا من آلام مرض السرطان ، خوفا من أن تفوتها صلاة الفجر ، فتظل تقاسى هذا العذاب طوال الليل حتى تصلى الفجر ثم تعمل لها الحقنة فتنام .

فانظروا أيها المؤمنون كيف يكون الإيمان ؟ وكيف يكون الصبر؟ وتأملوا الفارق بين إيمان يقوى هذه القوة ويدفع إلى هذا الصبر على الألم ، وإيمان لا قوة ولا سلطان له فلا يدفع إلى الصبر عن الهوى ، هذا إيمان قوى يقمع ويسود ، وذاك إيمان ضعيف لا يردع ولا يقود هذا إيمان ينقذ ويعلى ، وذاك إيمان لا يجدى ولا ينجى .

قال تعالى : [ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين] (النور ٤٧) .

نعم وصدق الله تعالى . فما أولئك بالمؤمنين . إذ قالوا أطعنا ثم كذبوا قولهم بعملهم . والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . كما أكد الرسول .

فلا إيمان بلا إذعان . ولا اقتناع بلا اتباع . ولا خشية بلا خضوع . ولا حب بلا خشوع . فلا يؤمن بربه إلا من يخشاه فيتقيه . ولا يحبه إلا من يسعى لما يرضيه .

التوبة الكاذبة

رأيت شابا من هؤلاء (المؤمنين) لايصلى ولايصوم ولايتورع عن الحرام، وينقاد لكل ماتأمر به نفسه الأمارة بالسوء، ولا يعصى لهواه أمراً، ويعصى كل أوامر خالقه ورازقه الذى أسبغ عليه النعم، (١) أصابه الله بمرض أليم نغص عيشه وأسهر ليله، ومنعه راحته ولذته، وأيقظ ضعفه وذلته، فنادى ربه خاشعا، ودعاه ضارعا، إنى تبت إليك فاشفنى ونجنى من المرض وارحم ذلى وألمى، أعاهدك ربى على الاستقامة والطاعة لأوامرك والاجتناب لنواهيك، فلما استجاب الله تعالى له ورحمه من العذاب، نسى ربه كما نسى ألمه ووعده، فما ارتدع ولا ارعوى، ولانهى النفس عن الهوى، بعد ماذاق مر العذاب وبناره اكتوى، فهو كما وصفه تعالى بقوله [وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه . منيبا إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل] (الزمر ٨)

---

(١) (كتاب نعمة القرآن . الابتلاء)

فما اشقى الفاجر المعمر الذى يجلده الله المرة بعد المرة بسوط عذاب ، ويشويه على جمر الآلام والأحـــزان ، فما يكاد يكف السوط والاحتراق عن جسمه وقلبه ، حتى يعود إلى فجوره ولما تلتئم جروحه . »

فإن التوبة عنـد الموت او العـذاب ، توبة كاذبة دفع إليها الألم والخوف من الممات ، فلو لم يهجم المرض بتعذيبه على هذا العاصى الغافل عن ربه لما انتبه من عميق غفلته وفكر فى التوبة إلى الله ، بل إنه لو عاد إلى عافيتـه وصحته ، لارتمى ثانية فى بؤرة شهوته ، وغرق فى أوحال لذته ، كما أخبر العليم الحكيم فى قوله [حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت [كلا إنها كلمة هو قائلها] (المؤمنون ٩٩) وقوله [ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون] (الأنعام ٢٧ ، ٢٨)

وهكذا يؤكد الله تعالى كذب التوبة عند الموت أو عند العذاب ، ولذا لم يغفر للكاذب فى توبته الذى يصر على سوء عمله حتى يدفعه الجزع أو الألم أو اليأس إلى التوبة والندم مكرها

لاختارا ، وهـــذا ما وقع امامى ورأيته بعينى راسى ، بـل وصدقته لشدة ماشعرت به من الندم ، وما كنت أدرى لجهلى أن شدة الندم نشأت عن شدة الألم ، فما إن كف الألم حتى كف النـــدم .

وقد رأيت ذلك مرة أخرى من سيدة أصابها مرض خبيث أذاقها عذابا حرمها النوم ، وفى غمرة هذا العذاب الأليم أنابت إلى الله ضارعة ووعدت أنها لو شفيت ونجت من هـذه الآلام وعادت إلى صحتها ، لتبرعت للفقراء بألفى جنيه ، وبعـــد ذلك سعى الأطباء لتخفيف الألم بأنـواع المخـدرات والمسكنات ، فلما شعرت ببعض الراحة إذ خف الألم نقص المبلغ الموعود من ألفين إلى ألف واحد فقط ، ثم نقص الألم عن ذى قبل فنقص المبلغ مرة ثانية ، وهكذا كلما نقص الألم نقل اليأس وزاد الأمل ، نقص المبلغ كذلك حتى فارقت الحياة بلا تصـــدق ولم تبادر الشقية وتسارع إلى الخيرات لتدخر عند الله شيئا من مالها الكثير .

هذه صورة من واقع الحياة تصف حب المال حبا جما والحرص عليه ، كما تصف كذب التوبة عند الشدة والألم كما أكد العلم

الخبير ، ومن أصدق من الله قيلا ، فإن الألم كالخوف ، يدفعان إلى تصدق قهرى أو توبة قهرية .

وهذه سيدة (مؤمنة) إيمان الأباحية ، حاجة لبيت الله ، وتصلى وتصوم كما يزعمون ، ولكنها تمادى فى التبرج والتبذل كما شاء لها الهوى ، أصابها الله تعالى بمرض خطير وأشرفت على الهلاك ، فأجريت لها عملية جراحية خطرة فى أوربا ، ومن الرحمن الرحيم عليها بالنجاة والصحة ، فعادت إلى بلدها كما عادت إلى فسقها ، ولم تشكر من أنجاها وغمرها بإحسانه ، إلا بالإصرار على عصيانه ، إذ لم تؤثر فى قلبها هذه المحنة ، فلم تشعر بالشكر لله على هذه المنة ، بل عصت أمر من أنجاها ، لتطيع أمر هواها . حقا إن من زادت لذته . زادت غفلته . فخبا رشده واتقدت شهوته .

فواعجبا لهذا الإيمان الذى لا يدفع الى الشكر والإحسان . ولا يردع عن العصيان . إنها قصرت عقلها على خدمة بدنها من أكل وتأنق وتزين . وكرست كل وقتها لأمور الدنيا ومتعها من لهو ورقص وقصف . ملأ ذلك عقلها ووقتها فلم تفكر فى غيره ولم تشعر بتقصيرها نحو الله ونحو نفسها . ولم تعرف أنها لا تعرف أوامر ربها وأنها تعصيه . ولم تدر أنها لا تدرى

كيف تطيعه وكيف تتقيه . ولم تحاول أن تفهم كيف تسعى لما يرضيه . انها لم ترد أن تفهم فلم تفهم . ولم تشعر بذنوبها فلم تندم ، ولم تشعر بشقوتها فلم تتألم . بل ظلت فى غمرة جهلها ترتع وتنعم . لا تسعى لنعيم الجنة ولا تخشى نار جهنم . (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون) .

(الأعراف ١٧٩)

المترفة المغرورة

هذه سيدة ثرية مترفة متكبرة متفرنجة ، تباهى بأنها تجيد اللغة الإنجليزية والفرنسية وغيرهما ، كما تباهى ولا تستحى من أنها لا تعرف لغتها العربية ، ولشدة حبها للإنجليزية هى وكل أسرتها ، يدخلن فى كل جملة يقلنها كلمة انجليزية ليزين بها العربية ، فتقول مثلا : إن هذا العمل هو (النيتشر) لفلانة أى طبيعة فلانة .

وتظن هذه المرأة لغرورها أنها أعلم الناس وهى جاهلة ، وتزعم أنها ذكية حكيمة وهى غافلة ، وكفى بها جهلا وغباء أن تفخر بالإثم وجهل دينها الإسلام ، ولا تستحى من الاعتراف بأنها لم تعرف الاغتسال وهى سيدة متزوجة وفى سن الأربعين ولها عدة أولاد ، كما تفخر بأنها على جانب عظيم من الأناقة ، ولا تخجل من أنها على جانب عظيم من القذارة ، وأنها لم تعرف الإسلام ولم تنعم بالطهارة ، بل إنها تتبرأ من الإسلام والعربية وتباهى بفجورها ، ولا تستحى من جهلها لأقدس

الواجبات ، وإعراضها عن عبادة ربها وترك الصلاة ، فهى لا تدرى بأنها لا تدرى ، وغفلت عن غفلتها فظلت فى جهالتها .

وشر من ذلك هو انتقال عدوى فسقها وجهلها إلى أولادها ، فأنها أضلتهم بضلالها وأفسدتهم بفسادها ، بل هى قد نشرت الفساد فى بلادها ، بأولادها وأحفادها وأولاد أحفادها ، فيالها من جرثومة تؤذى وتفتك بالعباد ، بما تقدمه من ذرية تنشر الفساد .

سمعتها تقول مزدهية : إنها تترك للخدم مخزن المؤونة من أرز ومسلى وغيرهما ولا تبالى لثرائها إذا نفد ما فيه فى اسبوع وهو يكفى لشهر وزيادة ، ولا يهمها أن يسرق الخدم كما يشاءون ، ولا تدرى أنها تقترف إثما بتغاضيها عن الحرام ، وإغرائها باقتراف الآثام ، وكان بوسعها أن تقدم صدقة ، ولا تبيح وتغرى بالسرقة .

وكم غضبت عندما قلت لها إن هذا الشىء يوفر كثيراً ، فصاحت قائلة فى غضب : إنى لا أهتم بتوفير ولا تبذير ، وعدت قولى إهانة لعظيم مكانتها وكثير ثروتها .

إنها تسخر من الناس وتنظر إليهم كأنهم حشرات وهى حشرة ،

وتهزأ من عادات الإسلام وتستقذر المسلم وهى قذرة ، وتنفر من الاحتشام وتحترم الفجرة ، وما أصدق قوله تعالى [وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا] (الاسراء ٨٣) وقوله [ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض] (الشورى ٢٧)

هذه السيدة حرم معالى الوزير الباشا الكبير ، تكرس لشهواتها كل وقتها وكل حياتها ، ولا لذة لها إلا أن ترى العيون إلى جمالها رانية ، والآذان لحلو حديثها صاغية ، لا تلبس من الثياب إلا أغلاها ، ولا تسكن من القصور إلا أعلاها ، ولا تفكر فى شىء إلا دنياها . ولا تدين بطاعة إلا لهواها .

إنها لا تعرف ربها كما لا تعرف دينها لأنها لم ترد أن تعرفه لإستخفافها ، ولكنها عرفت اللغات الأجنبية وتاريخ أوربا وأسماء ملوكها وماذا فعلوا وماذا قالوا ، ولم تعرف ماذا يقول الله تعالى فى القرآن وماذا يقول الرسول ﷺ .

وهى تتأفف وتتبرم بواجبات الدين ووظائف الحياة الضرورية ، إذ تستغرق جزءاً من وقت المرح والطرب أو من وقت النوم

والكسل ، فهذه المخلوقة العجيبة تستغرق الصباح فى النوم ، وتقضى المساء والليل فى اللهو والقصف ، وما بين ذلك فى التجمل والتأنق ، فوقتها موزع بين السرير والمرآة وبين المتاجر والنوادى والملاهى ، فكيف تجد وقتاً أو عقلا تذكر به خالقها ، وكيف تستطيع أن تواظب على العبادات ، وهى غارقة فى بحر زاخر من اللذات ، وكيف تعرف صبراً أو تحتمل تعباً أو ألماً ، وهى لا تحتمل إنقطاع اللذة [أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .ن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا] (الفرقان ٤٣ ، ٤٤).

فحياة التنعم والاسترسال فى اللذات والشهوات حجاب بين القلب وبين الرب ، إن للذة إذا زادت غيبوبة كما للألم ، فمن كثرت لذته ، وسيطرت عليه شهوته ، خبا إيمانه وفترت عبادته ، ومرض قلبه ، وضعفت إرادته ، وقانا الله شر ترف يذهب بالألباب ، وشر لذة تدعو إلى العذاب ، ونجانا من شيطان شهوة تفضى إلى العقاب ، فلا مرحبا بسرور جاء بالضرر ، ومتاع ساق إلى عذاب سقر .

إن هذه السيدة المغرورة بعقلها التى لا تدرى بجهلها ، المباهية بمنصب زوجها وعظيم جاهها ، لا تعامل الناس بما تحب أن يعاملوها به ، إذ تزعم أو تتوهم أنها من طبقة فوق طبقتهم وأن مستواها غير مستواهم ، فتأمر وتنهى فى كبر من يزورها ومن تتفضل عليه بزيارتها وتحدد له الموعد وتفرض عليه الدقة بالدقيقة ، ثم تتركه ينتظر فى بهوها ما يزيد على ساعة ، كأنها تتنازل لهذا المخلوق الحقير ببعض وقتها الثمين وتتصدق عليه بشرف الزيارة لها . أما هى فإنها تزوره على غرة فى الوقت الذى يلائمها ، فتنقض عليه بغتة بلا سابق إنذار .

إنها تشعر بعدم التكافؤ بينها وبين الناس ، وأنها تتصدق عليهم بزيارة مقابل عدة زيارات ، ولا تسمح لأحد أن يزورها بلا استئذان ، وتسمح لنفسها أن تزور من تريد على غير موعد ، بل هى ترفض بلا حياء من بعض الناس أن تزار ، وتجهر بقولها إنى لا أريد أن أعرف فلانة ولا أن أراها ، وهى لا ترد الجميل بمثله فلا تعزى من عزاها كما لا تهنىء من هنأها ، لان تعزيتها شرف وصعود إليها ، أما أن تعزى هى غيرها فإنه هبوط وتنازل

ونزول لا يهون عليها ، فزيارتها غير زيارته ، لأن مكانتها غير مكانته ، وسيادتها غير حقارته .

إن هذه السيدة حرم سيادة الباشا الوزير ، لا تقبل نصحاً ولا تحتمل نقداً لأنها معصومة من العيوب ولا مثيل لها فى الوجود ، ولذا تعد النصح إهانة لشخصها المقدس ، فهى ممن وصفهم الله سبحانه بقوله : [وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد] (البقرة ٢٠٦)

قلت لها مرة فى رقة ولين : إن هذا (الديكولتيه) أى الجيب ، أكبر وأوسع مما ينبغى للسلامة يا أختى العزيزة ، وما تضعينه على رأسك لا يحجب كل شعرك كما أمر الله تعالى فى القرآن ، فشعرت بغضب يتأجج فى عينيها ، وتهكم يتدفق من بين شفتيها ، وهى تنفجر قائلة : إن هذا (الديكولتيه) ليس أكبر مما ينبغى كما تزعمين ، بل هو أصغر مما ينبغى .

وبعد أيام تعمدت زيارتى حاسرة ، لم تغط بعض شعرها كما كانت تفعل من قبل ، أما (الديكولتيه) فإنه اتسع حتى كاد ثدياها يبرزان منه لاتساعه ، فضحكت فى نفسى من هذا الإنتقام

العجيب لكرامتها بالتمادى فى فسوقها وجهالتها ، إنها ترد إهانتى لها بإهانة نفسها ، وتتعمد إغاظتى بمخالفة نصيحتى ، كأن الله تعالى سيعاقبنى أنا على ذنوبها وفسوقها ، فهل فوق ذلك من جهل وكبر وغرور ؟ !

وهذه السيدة المتعظمة حرم الباشا ، لاتعرف آداب الإصغاء كما لا تعرف آداب الكلام ، إذ تسأل من بجانبها عن صحته وصحة أولاده أو عن مشكلاته ثم لا تنتظر الجواب ، بل تلتفت إلى الناحية الأخرى لتسأل غيره نفس السؤال ، إنها تهين غيرها بسؤالها ثم إعراضها وتبرهن له على عدم اهتمامها به واستخفافها كما تبرهن لكل من يراها على قلة أدبها .

أما كلامها فجارح فظ لا تتحرى فيه ذوقا ولا رقة ولا مجاملة فتذكر العيب أمام المعيب وتسخر من البدانة أمام البدينة ، كما تصف العور أمام العوراء ، وتذم الحول أمام الحولاء ، كما تذم السمرة أمام السمراء ، فكم سخرت هذه المغرورة وهى سخرية وكم عابت غيرها بما فيها من عيوب . وكم ضحكت من ذهولها عن عيوبها وفطنتها إلى عيوب غيرها ، إذ تهكم على أنف كبير

وأنفها أكبر ، وتسخر من عينين صغيرتين وعيناها أصغر ، وتصف فلانة بقصر القامة وقامتها أقصر .

وكم سعت هذه المترفة المثقفة إلى شقوتها وهى لا تدرى ، إذ أعرضت عن سعادتها بابتعادها عن الله وكتابه ، فسعت باختيارها لغضب الله وعقابه ، وما أصدق قوله تعالى فى وصفها [نسوا الله فأنساهم أنفسهم] (الحشر ١٩) .

نعم ، إنها نسيت نفسها فلم تبحث عن سبل النجاة ، ولم تبال إلا بمتع الحياة ، ولم تفكر فيما بعد الممات [فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى] (النجم ٢٩ ، ٣٠)

خطر الاختلاط والتبرج

كم من حوادث فاضحة وقعت بسبب اختلاط الجنسين مع التبرج والبعد عن الله وأوامر كتابه ، لأن ضعيف الإيمان ، ضعيف المقاومة أسير شهوته لا يبالى إلا بمتعته ، ولا يعبأ بعاقبة ولا عقاب ولا يأبه لآخرة ولا ثواب .

فهذه الأم التى هجرت دينها وعبدت بدنها ، وهامت كالهوام فى الشوارع والمتاجر والملاهى ، فأهملت ابنتها الوحيدة ولم تعلمها آداب الإسلام ، ولم تعودها التقوى والاحتشام ، قد انتقم الله تعالى منها بابنتها عقابا على إهمالها لدينها وواجباتها .

هذه الأم المترفة المتفرنجة ، سمحت بأن يعلم ابنتها الرسم ؛ شاب فرنسى وسيم ، ولم تخش عاقبة انفرادهما معا ؛ ولم تفكر فى الخطر الذى يهدد سذاجة وجهل هذه الإبنة الشقية بأمها ، التى لم تسارع إلى إنقاذها وحمايتها بتعليمها ما ينبغى أن تعلمه

من عبادات وواجبات ، وسارعت إلى تعليمها ما لا لزوم له من كماليات ، فقدمت أن تعرف ابنتها تصوير ما تراه ، على معرفة ما يحميها وينجيها فى الدارين مما تخشاه ، كما قدمت معرفة متع الدنيا ولذاتها على معرفة الله .

ظلت الدروس مستمرة عاما وعامين وثلاثة أعوام ، والأم غائبة غافلة هائمة فى هواها ، حتى كانت الكارثة ، إذ أحبت هذه الإبنة الجاهلة هذا الشاب الوسيم المسيحى ، ولم يجد إقناعها بأن الإسلام لا يبيح زواج المسلمة من مسيحى . لأنها ليست مسلمة ، فهى لم تعرف الإسلام بل لم تعرف ربها ، فكيف تخشاه وتضحى فى سبيل رضاه بحبها ، وما أصدق قول الرسول ﷺ بأنه ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما .

وهكذا تزوجت المسيحى بالرغم من إرادة والديها وسافرت معه إلى باريس وأقامت هناك بلا رجعة ، فصدمت الام المسكينة صدمة قوية لفراقها ابنتها الوحيدة وأصابتها ذبحة صدرية ، ظلت تعاودها سنين عديدة حتى قضت عليها ، فهل من عقل يفهم أن ما حدث إنما كان بسبب إهمال الام التى قصرت فى حق الله وفى

تربية ابنتها على طاعته ، فعاقبها سبحانه بهذا العقاب الصارم جزاء إهمالها واستخفافها بأقدس الواجبات .

وهناك أم أخرى من المترفات الثريات ، لم تعلم ابنتها الا الأناقة واللغة الفرنسية ، ولم توجهها الا الى التفرنج والإباحية ، فلم تعرف الشقية ما ينفعها مما يؤذيها ، ولم تجد من يحرسها ويحميها ، من شر جهلها ومن شر ما يغريها .

أحبت هذه الابنة المنكودة سائق سيارتهم . وهو شاب نوبى أسود البشرة لا يملك إلا مرتبه الضئيل ولم يتثقف ولم يعرف الا قيادة السيارة ، ولكنه طويل القامة وسيم ، أنيق رشيق ، وكانت هذه البنت تواظب على الخروج مع أمها كلما خرجت لزيارة الأقارب أو الصديقات ، ولكنها كانت ترفض مرافقة أمها الى بيوت الأصدقاء وتظل فى السيارة زاعمة أنها تفضل مداعبة كلبتها على الزيارة ، وذلك لتنفرد بالحبيب ويتبادلا عبارات الغرام .

ظلت هذه العلاقة الحقيرة مدة لم يدر بها أحد ولم تخطر على بال أحد ، حتى اختفت بنت الأكابر فجأة كما اختفى معها خاتم الأب الثمين (الصوليتير) أى ذو جوهرة وحيدة كبيرة ، فظلوا يبحثون عنها يومين ، وبلغ أبوها الشرطة ، وكان هذا

السائق الذى تزوجها يبحث معهم ويرافقهم وهم لا يدرون بما فعل ، وأخيراً وجدوها فى حى شعبي وقد عقد قرانها على هذا السائق ، فهددوه بالعقاب الشديد على فعلته لأن البنت كانت قاصرة ، وأجبروه على تطليقها .

وهكذا كانت هذه الفضيحة سبباً لشقاء الأسرة وشقاء أخوات هذه البنت الطائشة بالرغم من جمالهن وثرائهن ، فلم يتزوجن إلا بعد مدة طويلة وسنين عديدة ، وكل منهن تزوجت ممن لا يليق بمركزها وجمالها وثرائها .

هذه الحادثة كتلك ، دفع إليها الجهل والفسق والإهمال ، إهمال الأم الجاهلة والأب الفاسق ، فإن من لا يعرف ربه ودينه لا يمتاز عن البهائم ، فالبهيمة تستسلم لأول ذكر يقابلها ، ولا تبالى إذا كان لونه أبيض أو أسود ، بل تريد ذكراً وحسب ، أى ذكر .

إن كل هذه الحوادث والفضائح ، من صنع الوالدين المهملين ، فهما اللذان لا يحميان أولادهما بعدم الاختلاط ولا بقوة الإيمان بالله وحصن التقوى ، التى تحمى وتنجى من كل ما يغرى ويغوى ، فهما منبع الفساد بفسادهما ، وهما يبعدان عن الله بابتعادهما .

وانظر يا قارئى الكريم إلى عاقبة الاختلاط الوخيمة بين الجنسين مع التزين والخلاعة والجهل بالدين ، فهذه زوجة طبيب شهير يزعم الإسلام والإيمان بالله ، جاءت يوما لزيارتى وقصت على باكية عجيب وحقير ما رأت ، لقد رأت أختها تغازل زوجها ويغازلها ، وتعانقه ويعانقها ، وأحست من زوجها الميل الشديد لشقيقتها التى كانت أجمل واصغر منها سناً .

وكم سمعت منه الإطراء والمديح لصفات أختها وجمالها فصبرت ولم تنبس ببنت شفة ولم تبد أنها رأت شيئا أو أساءت ظنا ، خوفا من أن يطلقها زوجها ليتزوج أختها الفاجرة ، فتحرم أولادها وبيتها وزوجها ، فكتمت الشقية نارها فى قلبها الجريح وتعامت عما ترى وتسمع لتكون إلى جانب أولادها ، بل إنها اضطرت إلى ملاطفة زوجها والتمادى فى تدليله لتحظى برضاه ، وحاولت أن تتفوق على غريمتها بالمكر والاحتيال ، فتذرعت بكل ذريعة لتهزم قوة الجمال ، وتسلحت بكل وسيلة لتظفر فى القتال .

فالاختلاط مع التبرج ضرر جسيم ، وخطر عظيم ، يخرب الديار ، ويجلب الخزى والعار فكم دعا إلى العداوة والبغضاء بين الأخت وأختها وبين الأخ وأخيه ، وكم فصل الزوج من زوجه

وحرمه بناته وبنيه ، وكم خيب الآمال ، واحرق قلوب النساء والرجال ، ودعا إلى الحرام وترك الحلال .

وهذه حادثة أخرى تشبه هـذه الحادثة سمعت عنها من أم منكودة ، وما أكثر ما يحدث ولا نسمع عنه ولا نراه ، وهى الغزل بين زوج ابنتها وامرأة أخيها الرقيعة التى كانت تولم له الولائم وتدعوه لأكل لذيذ ما طبخته بيديها الجميلتين ، وتقدم له الهدايا المصنوعة بيديها الكريمتين ، وهو مأخوذ بجمالها ودلالها وأعمالها وأقوالها ، ولم تستطع الزوجة البائسة أن تخبر أخاها بما تأتيه زوجته خوفا من أن يطلقها فيحظى بها زوجها ، فهـذا الزواج هو الحافظ الواقى المنجى من خراب بيتها .

وهكذا كتمت أمرها واحتملت نارها ، وعاشت فى جحيم الغيظ والغيرة .

* * *

أما هـذه الحادثة فإنها أعجب وأغرب من كل ما ذكرت مما رأيت ومما سمعت ، لقد سمعت عنها من زوجة شقية بزوجها الذى كان يعاملها فى قسوة وغلظة لأنها عرفت خيانته ونذالته .

كانت هذه السيدة تعيش هى وزوجها مع أبيها وأخيها وزوجته فى

بيت واحد ، وكانوا يلعبون ويمرحون ويسهرون معا ، فنشأ عن هذا الاختلاط الدائم ميل بين زوجهـــا وزوجة أخيها ، وأغراها بلباقته وأناقته ووسامته ، فمالت إليه وسعدت بقربه ، واتصل قلبها بقلبه ، وظلا يتبادلان النظرات والابتسامات ، كما يتبادلان المزاح والضحكات ويسهران الليل يلعبان ويتسامران ، حتى تمادى بهما الأمر إلى الغزل ورآهما أحد أفراد الأسرة فى وضع غير لائق ، فصعق الأب وابنه وابنته ، وكانت كارثة أشقت أسرتين ، وأحرقت قلبين ، وباع الأب البيت الكبير الجميل ليفترق العاشقان ، ويبتعد الفاسقان ، وانتهى الأمر بالسكوت والكتمان .

هذه حادثة تثبت قوة الجاذبية بين الجنسين ، وخطر النظرات والبسمات التى تثير نشاط (الهرمونات) إنه خطر غريزى وميل فطرى ونداء جنسى بين الذكر والأنثى ، حذرنا الحكيم الخبير من شره فى قوله : [قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم] وقوله [وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن] النور ٣٠ ، ٣١) فهل فوق ذلك تحذير ووقاية من شر نظر الجنس للجنس الذى يجـــذب كلا منهما إلى الآخر ، وما أصدق قول الشاعر .

كل الحوادث مبدؤها من النظر. ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذاعين يقلبها فى أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

وما أعجب أن يحدث مثل هذا الميل أو هذا الحب أو هذا الجنون لا أدرى ماذا أسميه ، فى قلب مفعم بالحب الشديد القديم ، فإن هذه الزوجة تزوجت قريبها الذى كانت تبادله حبا جارفا عنيفا منذ الطفولة حباً نما وترعرع فى قلبيهما طوال الحياة ، فكيف يدخل حب ويجد له مكاناً فى قلب مفعم بحب شديد متين ، فواعجبا . هل يسع القلب حبيبين فى وقت واحد ، وكيف ينسجم حبان ويعيشان معاً فى أمان ، وكيف يبيح الحب القديم لهذا الحب الجديد الدخول مكانه وأن يتطاول عليه ويزاحمه ، ولا يطرده بل يقتله ، فيا للعجب طـذا القلب ، الذى يتصادق فيه حب مع حب .

إنى أوقن بأن الحب الصادق المتين ، حصن حصين يصون القلب من أى زلل وأى ميل لغير مالكه ، فهو سلطان يسيطر على شعور القلب ، يحميه وينجيه من أى ضعف ، وهو يعمى

البصر عن اى جمال ويقاوم الإغراء والشهوات ، ويقى شر الأهواء والنزوات .

فما أحكم حرص القرآن وعظيم حذره ، ليقى المرء إغراء غرائزه وعظيم خطره ، فأمره بألا يحدق فيما يلذ له وما يشتهيه ، لينجيه من شر ما يغويه وما يغريه .

وهناك أب تقى يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويدرس القرآن ، ثم يسمح لابنه الوحيد بالسهر فى الحانات الليلية هو وزوجته الجميلة فى ملابس تكشف عن لحمها وتصف عظيم جمالها ، ولا يغضب من أنهما يرقصان ويشربان الخمر ، بل يرضى عن ابنه الفاجر ولا يزجره ، ويتغاضى عن فسوقه فلا ينهاه ولا يأمره ، فكان نتيجة الاختلاط والرقص · والخمر ، خراب بيته وحرمان طفليه الصغيرين حنان ورعاية أمهما ، لأن هذه الأم الطائشة المترفة ، أحبت صديق زوجها الضابط الذى كان يراقصها ويداعبها فى سهرات الحانات ، وزوجها الغبى غافل عن شرفه وزوجه وواجبه نحو نفسه وربه ، فهو فاجر تزوج فاجرة ، وداعر أحب داعرة .

وهكذا هربت هذه الزوجة من بيت زوجها الذى كان يحبها حباً شديداً ولا يخالف لها رغبة ، لتتزوج صديقه الذى أغراها بحبه ، فذاق مر العذاب والعقاب على عصيانه أوامر ربه .

فواعجباً لإيمان هذا الأب الأنانى الذى لا يبالى إلا بنفسه ، والذى لا يسعى للجنة سعيها ولا يسعى لينقـذ ولده من عذاب الجحيم ، فهل هذا حب قلب أب مؤمن رحيم ؟ وهل هذا حرص تقى على نجاة ولده الوحيـد وفوزه بالنعيم . وهو يعرف قوله تعالى فى القرآن الكريم [يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة] (التحريم ٦) .

الوقاحة

لقد رأيت أن الوقاحة تنشأ عنها كل الرذائل ، وذلك لأنها تجرد من الحياء والشعور بما يزرى بالاحترام ، واستخفاف بالأمور والعواقب ، وجرأة على اقتراف ما يوجب الخجل والندم بلا تردد ، فمن تجرد من الحياء ، فعل ما يشاء .

فالوقح جرىء صفيق لا يبالى بغضب الله كما لا يكترث بمن ازدراه ، إذ لا شعور له يؤلمه ولا ضمير له يؤنبه على ما أتاه ، ولا هم له إلا أن ينال ما يتمناه ، فلا وازع ولا رادع يؤنب ويؤدب كالحياء ، فمن فقد هذا الشعور الكريم ولم يستح من الله والناس ، فقد الميزة بين الإنسان وبين الأنعام ، فأصبح جريئا دنيئا لا يستنكر القبيحة ولا يبالى بفضيحة ، ولا يخشى غضب الله ، ولا يسعى إلا لهواه .

فإذا تأملنا وفكرنا فى كل رذيلة وكل كبيرة وجدنا أن

الدافع إليها هى الوقاحة ، فكل فاسق عاص لله ، وكل عاق لوالديه وكل كافر بنعمة ربه وكل زان أو سارق أو كاذب ، وقح لا يستحى من الله والناس ، كما أن كل بخيل وكل متطفل وكل متكبر وكل متبرجة ، ما دفع كلا منهم إلى الفحشاء والمنكر إلا الوقاحة التى تدعو إلى الجرأة على كل قبيح بلا خجل ولا وجل .

نعم ، إن كل من فقد الحياء الذى يردعه عما يشقيه فيحميه وينجيه ، اندفع إلى كل قبيح بلا تعفف ، وأقدم على ما يهلكه بلا تردد .

إن الحياء آية الإيمان والتقوى ، وهو جمال خلقى يتألق فى فى العينين ، ويتوهج على الجبين والخدين ، ويترقرق فى ابتسامة الشفتين ، أما الوقاحة فإنها آية البعد عن الله ، وهى دمامة تتأجج فى النظرة ، وتتهكم فى البسمة ، وتتملق فى اللهجة ، فتمسخ كل جمال بدنى مهما كان عظيما .

فانظر أيها القارىء كيف بخل الوقح وكيف تطفل ، وكيف أتى كل قبيح وسعى لكل بغيض ولم يخجل ، فلقد أحاطنى تعالى

بالقبيح لأنفر منه ، وأرانى أنواع المنكر لأستنكره وأعرض عنه ، كما أرانى كيف يدفع البخل والطمع إلى الصفاقة ، وكيف يغريان بالتطفل والوقاحة .

لقد كان لى جارة فى ريعان شبابى . أمها صديقة لأمى ، وكنا نتزاور ونتبادل الحب والصداقة ، وكان زوجى يحترم الجيران كما أمر الله ورسوله ، فكان يرفض أجر علاجهم ، وما أكثر ما كانوا يطلبونه ليعود مرضاهم من أم وزوج وخدم لأن الزيارة مجانية ، بالرغم من أنهم أثرياء .

أصاب جارتى هذه مرض شديد حرمها النوم والاكل إذ كانت لا تهضم أى طعام مهما كان خفيفا ، بل كانت لا تكف عن القىء ليلا ونهارا حتى هزلت المسكينة هزالا شديدا ، فاستشارت كثيرا من أساتذة الطب الاجانب من ألمانى وانجليزى وغيرهما ، وعولجت بكل الوسائل المستطاعة فلم يجد أى علاج وأى دواء حتى يئست من الشفاء .

زارتنى يوما وهى على هذه الحال . وشكت لى ما تعانيه من عذاب وما تنفق من مال طلبا للنجاة من هذا المرض ، فعرضت

عليها أن يراها زوجى فلربما نجح فى إنقاذها من هذا العذاب بعون الله تعالى .

فحصها زوجى فحصاً دقيقا ، ثم وصف لها دواء تشربه كل بضع ساعات ، وما إن استمرت على تعاطيه أياما حتى شفيت مما تعانيه تماما وأصبحت تأكل ما تشتهى وتريد ، كما أصبحت تهضم كل ما تأكل وتجوع بعدما تهضم ، فشعرت بسعادة لا توصف لنجاح زوجى فى علاجها بعد ما أخفق فى ذلك أعظم وأكبر أطباء القطر المصرى .

طلبت منى جارتى يوما عدة (اسطوانات) تغنى فيها أم كلثوم وكانت حينذاك غالية الثمن ، فأرسلت لها كل ما عندى من هذه الاغانى الجميلة وأوصيتها بأن تحافظ على سلامتها فتستعملها فى عناية وحرص كما أفعل ، وبعد شهرين وزيادة أعادتها إلى وقد خدش أكثرها لسوء استعمالها ، حتى صارت لا تسمع ، أى فقدتها فلم أتكلم ولم أتظلم .

وبعد أيام تعطلت طاحونة طحن البن فجأة وكنت فى حاجة إلى سرعة طحنه لعمل القهوة ، فأرسلت خادمى ليستعير طاحونة

هذه الجارة ساعة واحدة ، فرفضت هذه الجارة الشاكرة قائلة : إنى لا أريد ان أعير شيئاً لأحد ما ، إذ أخشى أن تفسدوها ، فيا للعجب ، هل فوق ذلك وقاحة ، وهل بعد ذلك صفاقة ، إنها لم تشعر فلم تقدر ما أسدى إليها من خير لا تستطيع مكافأته مهما فعلت ومهما أعطت ، كما لم تشعر بإفسادها وإتلافها ما استعارت فخانت الأمانة وأثمت باستخفافها وإهمالها ما أؤتمنت عليه .

إن أجر زيارة واحدة لعلاج زوجها أو أمها أو خادمتها ، ليزيد على أضعاف ثمن هذه الطاحونة ، إذا كان ثمنها حينذاك لا يزيد على أربعين قرشا ، وأن ثمن شفائها ونجاتها من آلامها بعد يأسها لا يقدر ولا تستطيع جزاءه بعمل أى شىء مادى أو عاطفى ، إن الوقاحة جردتها من الشعور بالجميل كما جردتها من الشعور بالحياء ، فدفعتها إلى الحرص البغيض ومقابلة المعروف بضده ، إنها كالخمر تفقد الوعى والرشد وتدعو صاحبها إلى ما يزرى به ويحط من قدره واحترامه .

إن مكافأة هذا الجميل فوق استطاعة الإنسان ، ولا يجزى عليه إلا الله سبحانه الذى لا نسارع فى الخيرات إلا من أجل مرضاته وحسن جزائه .

واعجب معى ايها القارىء الكريم ممن ارانى كيف يكون الانتهازى النفعى ، وأوضح وصور لى معنى الوقاحة تصويراً دقيقا بغيضا ، هذا الذى ينتهز كل فرصة تسنح ، ليسطو وينتفع ويربح فإنه يتربص للاستيلاء ، ولا يقابل الأخذ بالعطاء ، بل يبحث وينقب عن شىء يختطفه ، ويسعى جاهدا لما يلتهمه أو يقتطفه يجول فى حديقتى ليجمع ما بشجرها من ثمار حتى الفج الذى لم ينضج بعد ، ثم يلقى به بعدما يجد أنه لا يؤكل ولا ينفع ، كما يجمع أجمل وأنضر الأزهار ويملأ بها سيارته بل يأخذ ما تسعه سيارته الكبيرة من (الأصاص) التى أينع ما بها من أزهار ممتازة فى كبير حجمها وغلو ثمنها ، فيترك حديقتى خاوية على عروشها ليس بها إلا ما ذبل وصغر من أزهار ، ليزين مدخل بيته بما أنفقت عليه الكثير فى وقت طويل وبما امتاز ببهجته ونضارته ، فيقدم حديقته على حديقتى بلا حياء ، بل إنه يسطو على الأبصال الغالية ليزرعها عنده ويغتصبها من البستانى غصباً ، ثم يدعى بعد ذلك الإسلام وإقام الصلاة وهو لص فى ثوب قريب أو ثوب صديق ، وغفل عن قول الرسول ﷺ (ما أخذ بسيف الحياء فهو اغتصاب) .

وكم من هؤلاء يدخل بيتنا متلصصا متجسسا باحثا عن شىء

يأخذه أو شيء يأكله فإذا ما وجد علبة من الحلوى أفرغها فى جيوبه وجيوب من معه بلا حياء ولا تردد .

وفى مرة من المرات وجد أحد هؤلاء الوقحين كمية كبيرة من البنـدق (المحمص) المملح وكان لا يزال ساخنا ، فملأ جيوبه أولا ثم أخذ يأكل منه ثم يأكل فى سرعة وفى همة كأنه فى مباراة فى سرعة الأكل ، ولم يكف حتى أتى عليه كله . ثم مضى وجيوبه ملأى بما كنت أشتهيه ولم أذق بندقة واحدة إذ لم يترك لى ذلك الصفيق نصيبا ، فهل هـذا المخلوق إنسان أو حيوان كالقط والكلب إذا ما وجد قطعة من اللحم لم يستأذن ولم ينتظر حتى يدعى إلى أكلها .

واسمع أيها القارىء الكريم قصة من قصص الوقاحة التى لم تقع لأحد غيرى . خرجت يوما مع زوجى واولادى لنقضى يومنا فى (القناطر الخيرية) . ونتناول غداءنا تحت ظلال الأشجار على شاطىء النيل الجميل . وقبل الغروب عدنا إلى منزلنا فأخبرنا الخادم (السفرجى) بأن قطيعا من المتطفلين جاءوا على غرة ولما لم يجدوا أحداً بالمنزل طلبوا منه أن يشترى لهم ما يشتهون من لحم طير وحمام مشوى وكباب (وسلطات)

متنوعة وحلوى من الحاتى ، وللأسف كان الخادم يحتفظ بمرتبه فاشترى لهم ما طلبوه ثم أخذ منى هذا المبلغ الكبير .

فوامصيبتاه ، لا أعجو من هؤلاء الذين يزعمون الحب والصداقة لينتفعوا حتى بالهرب من بيتى ، أهذا العمل حب وصداقة ؟ أم طمع وصفاقة ؟ لقد كنت أعيش فى بيتى مهددة بالمضايقة والملازمة ، والزيارة المفاجأة بلا استئذان ولا استعداد ، ويدعون أنفسهم إلى الأكل عندى بلا سابق إنذار ، وكنت أقاسى ثرثرة العباء وسطوة الشراهة وملازمة الوقاحة ، وذلك لأن بيتى يجرى من تحته نهر النيل العظيم ، وحديقتى واسعة ومليئة بالأزهار المباحة لمن يريد أن يقتطف ، وفوق ذلك زوجى طبيب ماهر شهير يسارع إلى علاج من يلجأ إليه بلا مقابل ، فكيف لا أحب بل كيف لا أعشق ولا يلتف حولى شتى النفعيين لينتفعوا بشتى المنافع ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

كنت لا أعرف طعم الراحة والهدوء ، ولا أمتلك وقتى وشبابى لأتصرف بهما كما أشاء ، بل ينقض على كالصاعقة عدة ضيوف من حين إلى حين على غرة ، ليقضوا اليوم (كله) فى قصف ومرح بين الأزهار وعلى شاطىء النيل ، وليأكلوا ما لذ

وطاب من صنع طباخنا الماهر بلا دعوة إليه ، كأن بيتى مطعم معد لمن يريد الأكل ، بل هو مستشفى معد لمن يريد العلاج مجانياً ، وأصبح سريرنا منضدة للكشف على المرضى ، بل إن هؤلاء يطلبون فى جرأة من زوجى علاج اقربائهم وخدمهم وأصدقائهم من جيران وتجار وغيرهما ، بل كم طلبوا منه السفر ليعالج قريبا فى بلد بعيد .

طلب منى مرة أحد هؤلاء الأحباء ، الأوانى التى يوضع فيها (البترول) ليختزن منه بعض الكمية لان ثمنه سيرتفع ارتفاعا كبيرا ، وكان عندى من هذه الأوانى ما يزيد على الستين ، وكنت أنوى أنا أيضاً أن أختزن من البترول ما يملأ كل هذه الأوانى لان عدد اسرتنا وخدمنا يزيد على ضعف أسرة وخدم هذا القريب وبالرغم من ذلك قلت له خذ النصف واترك لى النصف الآخر لأختزن فيه أنا أيضاً بعض ما يلزمنا ، فنزل إلى (البدروم) وأخذ النصف كما اتفقنا ، وبعد أيام عاد إلى وقال لى : لقد وجدت الأوانى التى أخذتها مثقوبة ، فسآخذ من (البدروم) كل السليم وأعيد إليك كل المثقوب فبهت لهذه الصفاقة التى لا مثيل لها ولا تخطر على بال بشر ، وهى أن يقدم نفسه على

صاحب الشيء ويعرض عليه بلا خجل أن يخذ السليم ويترك له المثقوب ، كيف رضى له حياؤه أن يطلب هذا الطلب ؟ ؟

سمحت له بأخذ ما يريد ثم ظللت أنتظر أن يعيد إلى المثقوب كما وعد ، ولكنه لم يعد شيئا ، فسألته أين نصيبي المثقوب من الأوانى ؟ ؟ فأجابنى بلا حياء : لقد لحمت الكل وأخذت الكل ، فسألته : وأنا ماذا أفعل ؟ ؟ فأجابنى فى وقاحة : أنت تشترين ما يلزمك ، فيا للعجب ، كيف يرضى له حياؤه أن يأخذ كل ما أملك وما أحتاج إليه وهو كثير أما أنا فأشترى ما كان ينبغى أن يشتريه هو لا أنا ، كيف سمح لنفسه وجرؤ على هذا العمل الذميم فأزرى بنفسه وحط من قدره ليحظى بالتافه فبذل النفيس من أجل الرخيص .

واعجب ياسيدى القارىء لما حدث من أحد هؤلاء ، فإنه استعار (جراج) إحدى قريباته ليضع فيه بعض النفايات التى لايحتاج إليها وبعد عدة سنين تزوجت ابنة هذه السيدة ، وكان الزوج الجديد يملك سيارة ، فطلبت الأم من هذا المحترم أن يفرغ (الجراج) ليضع فيه الزوج سيارته ، فهل تعلم بماذا أجاب ؟ إنه قال فى بساطة وفى تبجح : إبنى له جراجا آخر .

سمعت هذه الحادثة العجيبة من زوجي ، قصها وهو ينفجر ضاحكا، ألم تر ياصديقي أني رأيت ما لم تره عين وسمعت ما لم تسمعه اذن ودهشت مما لم يخطر على قلب بشر .

وبعض هؤلاء النفعيين الذين كان يعالجهم زوجي مجانيا لا لأنهم فقراء . بل لأنهم أصدقاء أو أقرباء ، فكانوا إذا اجريت لزوجي عملية جراحية ، يذهبون الى المستشفى لا ليزوروه ويقدموا اليه هدية من الازهار أو الحلوى تعبيرا عن شكرهم له على بعض ما أسداه من خدمات كثيرة ، بل كانوا يزورونه ليستولوا على أجمل الازهار التي أهديت اليه وليملأوا جيوبهم بأغلى الحلوى فيأخذوا حيث ينبغي أن يعطو ويهدوا ، وينتفعوا حيث يجب أن ينفعوا .

لقد تعودوا الاغتنام والانتفاع ، وأن يأخذوا ما يمكن أخذه بلا انقطاع ، فيهجمون في لهفة وجشع على ما يجدونه كأنه غنيمة ويتسابقون في الاستيلاء عليه ، كما كانوا يمرحون ويمرحون كأنهم في عرس لا في مستشفى يزورون مريضاً عزيزاً في حالة خطرة ، مريضا كم غمرهم بإحسانه ، ونفعهم نفعا يعجزون عن شكره مهما عملوا من خير .

* * *

وأخيرا مات زوجى ، فانفض من حولى من كان يحوم حولنا ويتزلف إلينا ، إذ انقطع النفع فانقطعت الصلة والزيارة إلا قليلا ، ونسى الكل ما كان من خدمات ومنافع مستمرة ، واحتجنا مرة إلى خدمة بسيطة وهى رسم للأرض الموروثة ليأخذ كل نصيبه ، فقام بهذا العمل بل بهذا الواجب احد الأقرباء الذين عاشوا ينتفعون من زوجى النفع الكبير طوال حياته ، وكم كانت دهشتى عندما طلب هذا السيد الكريم مبلغاً من زوجة وأولاد الطبيب الحبيب الذى رعاه وظل فى خدمته وخدمة أقربائه وكل أسرته ، أكثر من ثلاثين عاما ، وطلب أجراً على عمل واحد لم يكلفه شيئا ، ممن لم يطلب منه أجرا كلما سافر إليه ليعالج أحد أفراد أسرته ، فأنفق من وقته الثمين وكثيرا من (بنزين) وغيره للسيارة ، وضحى بربح كثير فى سبيل خدمته ، ضحى بأغلى وأنفس شىء ، وهو الوقت الذى يربح فيه رزق أولاده أو يستمتع فيه بمعاشرة زوجته وأولاده الذين لم يكن يراهم ولم يحظوا برؤيته إلا نادراً .

إنه كان يتوانى فى حقوق الزوجة والولد ، ليتفانى فى

خدمة هؤلاء ، وكان يبخل عليهم بسعادة وجوده معهم ساعة واحدة ، ليسرف فى العناية بهؤلاء ويقدم لهم الخدمات فى سرعة ومواظبة ، وكان يضن برعايته وحنانه على أحب وأقرب الناس إليه ، ليسارع إلى العناية بهؤلاء الأقرباء والأصدقاء ، وكم أهمل الواجبات والفرائض الأولية ، ليواظب على تأدية الواجبات الثانوية .

إنه كان فى حاجة شديدة لبعض وقته ليستريح فيه من العمل الشاق المستمر ، ولكنه لم يضن به ليقدم إلى هذا القريب ما يحتاج إليه من خدمة وعلاج ، وبعد ذلك ، بعد خدمة الأسرة أكثر من ثلاثين عاما ، لم ينتهز هذا الذى كان ينتهز النفع ، الفرصة الوحيدة ليرد بعض القليل من الكثير الذى أسدى إليه ، وعصى قول الله تعالى [وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان] (الرحمن ٦٠) وقول رسوله [من صنع إليه معروف فليجز به] .

إن هذا العمل الذميم لا يجرؤ عليه إلا من لا يستحى من الله ومن الناس ، بل لا يجرؤ عليه إلا من سيطر على نفسه

الجشع والطمع ، فلم يبال بما يزرى به ولم يكترث بقبيح ما صنع .

* * *

لقد حرمت سعادتى بوجود أحب الناس إلى جانبى ، فحرمت بسمة نظرته وحنان لهجته وضرورة خدمته ، طوال شبابى وبعد شبابى لانصرافه عنى إلى عمله وإلى هؤلاء الذين كانوا يرغمونه على خدمتهم ، فاغتصبوا سعادتى واستولوا على نصيبى وحقى فى وقته ، فشقيت لينتفعوا ، وتألمت ليحفلوا بالعلاج والشفاء .

إنه لم يكن يجد الوقت الكافى ليمضغ الطعام على مهل ، ولم يكن يقضى فى بيته إلا فترات الأكل والصلاة والنوم ، واذا حاولت محادثته أثناء طعامه ، قطع على الحديث رنين جرس المسرة ليطلب أحد مرضاه ربط موعد معه ، ولم تترك هذه المسرة اللعينة لى فرصة لأتم كلامى مطلقا حتى سئمت محاولاتى وعشت فى صمت قاتل أقاسى وحدة العقل وحرمانى صديقا يصغى إلى لأفضى إليه ، صديقا يحادثنى ويؤنسنى ويؤاكلنى ويرافقنى أينما ذهبت وحيثما حللت ، ويصادق عقله عقلى فيرى

ويسمع ويفكر معى ، فقضيت حياتى فى جحيم وحدة العقل ، وجحيم ملازمة من ليس له عقل ، فقاسيت جحيمين وحرمت نعيمين ، نعيم الخلوة إلى زوجى ، ونعيم الخلوة إلى نفسى .

إن أسعد أيام حياتى هى أقسى أيام آلامى ، لأن أيام مرضى الخطر الأليم ، كان يلازمنى فيها زوجى ويترك كل شىء من أجلى ولا يبالى بغيرى ، فأشعر بأنه لى وحدى ، وأنه لا يفكر فى شىء غيرى ، ولذا كنت أتمنى المرض لأحظى بوجود زوجى إلى جانبى ولأنعم بحنانه وعنايته ، اذ كان يمحو شعورى بآلامى ، شعورى بعطفه ورعايته .

إنهم لم يتركوه لى حتى وهو مريض على فراش الألم ، إذ كانوا يحضرون لا ليعودوه ويخدموه ، بل ليسألوه ويستشيروه ، ولم يرحموه ويتركوه إلا عندما أشرف على الموت ، لم يتركوه إلا فى النزع الأخير .

لقد مرت حياتى فى انتظار ، وما أمر وما أطول ألم الإنتظار ، فإن انتظار الإعدام أشد ألماً من الإعدام ، وانتظار

المصاب أمر من المصاب ، وكذلك انتظار المتعة يؤلم بمقدار الشوق اليها ، وقد عشت فى جحيم الانتظار وذقت ألوان عذابه ، ومرت كل أيامى وأنا ظمأى والكأس بين شفتى ، ولم أسعد بحزيل نعم الله تعالى على ، بل ظلمات فى شقاء وكل أسباب السعادة لدى ، أتراوح بين عذاب الشوق والتطلع والتلهف ، وعذاب الجزع والقلق والتوجس ، شوق الى زوجى وانتظار للقائه ، وجزع لمرضه وانتظار لشفائه ، فقاسيت ألمين واحتملت انتظارين .

البخيلة

مدام عزيزة سيدة إسرائيلة ثرية ، مرتب زوجها كبير وتملك عمارة عظيمة فى (مصر الجديدة) ، وبالرغم من ذلك فإنها تستجدى كالفقراء ويبدو على ملابسها الرثة وحذائها البالى الرخيص الفقر والاحتياج ، وذلك لشدة بخلها وحرصها ، فقد آزرى بها شح نفسها وعاشت عيش الفقراء بالرغم من ثرائها .

ومدام عزيزة تعلم الناس اللغة الفرنسية وهى لا تجيدها ، كما تعلم الناس العزف على (البيانو) وهى لا تفقه شيئا من فن الموسيقى والعزف على هذه الآلة أو غيرها ، ولكنها لحسن حظها وجدت فى الأسر المصرية من هو أجهل منها فلم يفطن إلى جهلها ، ولم يدر بخداعها .

ولشدة وقاحتها وجرأتها كانت تزورنا على غير موعد ومعها

(نوتة) مقطوعة موسيقية عربية أو افرنجية ، وترجوني فى إلحاف أن أعلمها كيف تعزفها على البيانو وكيف تعلمها لغيرها ، وكان هذا الأمر عسيراً لأنها ضعيفة لم تتمرن كما ينبغى ولم تتعود العزف ، ولذا كانت تتضرع إلى لأنقذها من الجهل والفضيحة أمام الناس ، وأن أربح ثوابا كى تربح هى نقودا .

وهكذا ظلت هذه الصفيقة تتردد على لأعلمها ما ستعلمه لإحدى السيدات أو الآنسات فتربح ، بل فتسرق لأنها ليست جديرة بتدريس هذا الفن الصعب ، فما درسها إلى هؤلاء إلا احتيال ومضيعة للوقت والمال والجهد معاً .

والأنكى من ذلك أن تسألنى طعاما قائلة : أعطنى فخذ دجاجة أو قطعة من اللحم وبعض الفطائر والحلوى ، فإن اللقمة تمنع النقمة ، كأنها فقيرة لها حق معلوم ، وكأنها جائعة تستحق الصدقة .

كانت تطلب ثم تطلب وتأكل ثم تأكل وتتعلم ثم تعلم ، تتعلم التافه السهل ثم تعلمه للجهلاء ، لتكسب الأجر فى الدنيا

وتكسب الوزر فى الآخرة ، فهى لا تفكر فى آخرة كأنها لا تؤمن بها وكأن النوراة لم تذكر الآخرة وما بها من جزاء ، حقاً إن الطمع والشره وعشق الربح طبع قد تمكن من كل يهودى واستفحل أمره وانتشر شره وعم ضرره .

والأدهى من ذلك أنها لا تتردد فى أن تدعى معرفة كل شىء ولا تقول أبدا : لا أدرى ، حتى كانت تدرس العربيـــة وهى لا تعرفها ، ولقد سمعتها مرة وهى تعلم غلاما صغيراً كلمة عربية وتقول له : يطفو أى يتجول ، فقلت لها : طفـا يطفو أى عام على سطح الماء ، أما جال يجول فإنها طاف يطوف لا طفا .

ولقد ذكرتنى هذه الحادثة من مدام عزيزه وادعاؤها معرفة كل شىء ، بما قصه على أبى عندما كان فى ريعان شبابه ، قال لى : كنا خمسة زملاء نقطن فى شارع واحد ، وكنا نذهب معا إلى عملنا فى مكان واحد ونعود معاً مشياً على الاقدام إذ كان محل العمل قريبا من مسكننا ، كما كنا نتجاذب أطراف الحديث ونتسامر ونحن نمشى جنباً إلى جنب ، وكان أحدنا يدعى أنه يعرف ما لا نعرفه ، وأنه مثقف وخبير بكل شىء ، وهو

لا يعرف شيئا ويزعم الاطلاع والمعرفة وهو جاهل ، وكلما قلنا إننا لم نفهم كلمة مما قرأناه أو لا ندرى معنى ما سمعناه ، سارع إلى تفسير ما لا يفهم وما لا نفهم ، زاعما أنه تثقف ثقافة لم نحظ بمثلها وهو لا ينقص عنا جهلا .

ضجرنا وسئمنا هذا الإدعاء الكاذب وهذه الوقاحة والجرأة فى الكذب ، واتفقنا معا نحن الأربعة على أن يختار كل منا حرفا ثم نجمع هذه الأحرف لتكون كلمة لا معنى لها ولا وجود لها ، ثم نسأله عن معناها لنرى كيف يجيب عن سؤالنا ، فاختار أحدنا حرف الضاد ، واختار آخر حرف النون واختار الثالث حرف الباء ، واختار الأخير حرف الخاء ، وجمعناها فأصبحت (ضنبخ) .

وفى اليوم التالى ونحن عائدون ، ساله أحدنا قائلا : إنى وجدت كلمة غريبة لم أستطع فهمها فى كتاب كنت أقرؤه أمس ، فهل لك أن تفسر لى معناها ؟ فأجاب فى زهو ، طبعا ، هات ما عندك وسل ما تريد تجد الجواب ، قال إنها كلمة (ضنبخ) فأجاب هازئا : يا رباه ، كيف لا تعرف معنى كلمة بسيطة كهذه ،

إنها كلمة معروفة مألوفة معناها هو زيت الزيتون (العجر) أى الفج .

فانفجرنا جميعا ضاحكين حتى دمعت أعيننا وهو ينظر إلينا فى تعجب متسائلا ما الخبر ، وأخيراً قلنا له الحقيقة ، وهى أننا جمعنا كلمة من أحرف أخترناها : وأن هذه الكلمة لاوجود لها فى قاموس العرب ، فبدا عليه الخجل لأول مرة وكف من يومها عن الادعاء الكاذب .

ولنعد الآن إلى مدام عزيزة ، هذه البخيلة التى كانت حريصة على حذائها ورداتها ، وكانت لا ترتدى إلا البالى الرث ولا تخرج إلا بحذاء قديم حقير لا يليق بمدرسة تزعم أنها تجيد كل اللغات ، كما تجيد عزف الآلات ، فكانت تحضر معها حذاء ورداء لا بأس بهما فى كيس من الورق ، وبمجرد وصولها تدخل إلى دورة المياه لتغير حذاءها ورداءها وتقول لنا : من الخسارة أن أمشى بالحذاء الجديد ، فإنى أحتفظ به نظيفا لأمشى به فى بيوت الناس المحترمين ، كما أحتفظ بملابسى نظيفة جديدة لا أرتديها فى الترام وفى الطريق لئلا أعرق فيها فتتسخ .

إنها اتخذت المال إلهاً من دون الله وكرست كل حياتها وكل جهدها لجمعه وإدخاره ، وقدمت حب المال على أى حب سواه ، فلم تحزن لموت ولدها كما حزنت لتركه ثلاثة أولاد تعولهم ، وكم رددت هذه الجملة ساخطة : يترك لى ثلاثة أولاد أعولهم ، وكادت تلعنه لانها تفضل نقودها على ولدها الذى مات فى سن الخامسة والثلاثين ، بل هى تفضل نقودها على كل شىء فى الوجود حتى نفسها .

وأعجب من ذلك ماجرى لقدمها من حذاء قديم به مسمار جرحها وهى مريضة بمرض السكر ، واستفحل الامر حتى بترت قدمها ، وعندما رأتنى عجبت من قولها : إننى أنفقت مبلغا باهظا فى المستشفى ، وفوق ذلك فإن القدم الصناعية غالية الثمن جداً ، فواعجبا . إنها لم تشعر بمصيبتها كما شعرت بخسارتها لمبلغ من النقود ، ولم يؤلمها العذاب وبتر عضو من أعضائها ، كما آلمها الإنفاق وبتر جزء من مالها . فقدمت النقود على حياتها وعلى آلامها وفقد قدمها ، كما قدمته على ولدها وفلذة كبدها ، سيطر عشق المال على كل حواسها فأصمها وأعماها ، وأطفأ جذوة كل شعور كريم فى قلبها فأشقاها .

قال تعـــالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليهـا في نار جهنم فتكوى بهـا جباههم وجنوبهم وظهـورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

[التـوبة ٣٤ — ٣٥]

المتطفلة

السيدة (نجيبة) سيدة بخيلة صفيقة ، تصادق بالإكراه ذوى المال والجاه ، لتحظى بأكلة أو نزهة أو خدمة ، وكانت تستهدى وتستجدى فى قحة وصفاقة ، فكلما سافرت إحدى صديقاتها الثريات إلى أوربا ، طلبت منها ما يلزمها وما تتوق إليه ، وتشترط أن يكون كما تريد وكما تشتهى ، وكلما دعيت إلى عرس استعارت ملابس من غيرها وكل ماتحتاج إليه بلا حياء ، فقد طلبت منى رداء لتحضر عرسا مرتين ، المرة الأولى كنت آنسه فى (سن الرابعة عشر) ولم أرتد هذا الرداء الأبيض الثمين الذى اقترضته إلا مرة واحدة ، وكانت المرة الأولى التى أرتدى فيهـــا رداء مزخرفا لامعا كالسيدات ، وكنت أعتز به وأتوق إلى ارتدائه مرة أخرى فى عرس آخر ، وكم كانت حسرتى وحزنى عندما أعادته إلى فى قذارة تجعل ارتداءه مرة ثانية من المحال .

أما المرة الثانية فإنها طلبت منى رداء لترتديه فى عرس ، وكنت عروسا لما يمض على زواجى شهر واحد ، ففتحت خزانة ملابس العرس لأنتقى لها أقدم وأرخص رداء حرصا وخوفا مما وقع فى المرة السابقة ، فأبت إلا أن تنتقى هى ما يعجبها فى قحة ، وانتقت رداء لم أضعه على جسمى إلا أمام الخياطة للقياس ، انتقت رداء ثمينا أزرق اللون غالى الثمن لم يستعمل قط ، ثم أعادته إلى بعد عدة أسابيع كما فعلت فى المرة السابقة ، ملوثا بما أكلت من أنواع الطعام ، وأظنها قد استعملته عدة مرات .

ولشده وقاحتها وغباوتها هذه التى تسمى باسم يناقض حقيقتها ، تعترف بصفاقتها وما جرى وقيل لها من إحدى السيدات الثريات المبذرات اللواتى كلما قالت لإحداهن : ما أجمل هذا الشىء ، من أين اشتريته ؟ ؟ أجابت بقولها : تفضلى بقبوله هدية منى ، فتأخذه فى سعادة بلا تردد ولا حياء .

قالت لى يوما ضاحكة : رأيت صديقتى فلانه هانم ترتدى رداء جميلا رائعا اشترته من باريس فقلت لها : ما أجمل هذا

الرداء ، فأجابتنى بقولها : إنه ضيق لايوافق ولايسع بدنك الممتلىء ، فيا للفضيحة ، إنها لم تستح من إعادة هذه الإهانة أمامى بل ضحكت مما يوجب الخجل ، إذ لم تشعر بمعنى قول صديقتها وما به من سخرية وإهانة وازدراء .

وقد طلبت منى مرة قبل سفرى إلى سويسرا أن أحضر لها من هناك هدية جميلة ، فضحكت ولم أجب لأن النقود المسموح بها محدودة وقليلة لاتكاد تكفى لطعامنا ومبيتنا ، وإذا تبقى منها شىء فأولادى أحق وأولى بالهدية ، وبعد عودتى غضبت وقالت لى : والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، فأجبت : نعم ، إذا عاهدوا ، وأنا لم أعاهدك بشىء ، إنها تفرض على أن أجوع لأحضر لها هدية ، وتقدم نفسها على بناتى ، فهل فوق ذلك من قحة ؟ هذه السيدة كانت تزورنى من حين إلى حين ، وقبل الزيارة اللعينة بيوم تكلمنى بالمسرة من عند إحدى صديقاتها الثريات ، لتطلب منى ما تشتهى ا كله من ألوان الطعام والحلوى وغيرها ، ثم تنقض على فى الصباح المبكر وتمكث معى من الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الثامنة مساء ،

اثنتى عشرة ساعة فى عذاب وضجر ، اثنتى عشرة ساعة تبدى وتعيد ، وتسمعنى كرها كل ما تريد ، تتكلم ثم تتكلم فى توافه الأمور حتى يعترينى دوار ، ولا تستحى من أن تقص على حوادث التطفل المتتابعة ، وماذا أكلت عند فلانة وماذا أخذت من فلانة وأين ذهبت مع فلانة ، ثم تبدأ بعد ذلك فى السؤال تلو السؤال عما أدخر من أموال وعن ربح زوجى شهريا وعن إيرادى أو دخلى سنويا ، وعن نفقاتنا يوميا وشهريا ، حتى أضجر وأختنق من هذه الملازمة الطويلة وهذه الاستجوابات الثقيلة ، وأظل فى هذا العذاب هذه المدة المديدة .

والأنكى من ذلك إذا أردت أن أسمع فى المذيع شيئا لأستريح من هذا العذاب بعض الوقت ، انتهرتنى قائلة : لاتفتحى المذيع ودعينا نتكلم ونتسامر ، إننى لأراك كل يوم ، فياللداهية ، وبعد ذلك تخرج من حقيبة يدها دفترا فيه أرقام (تليفونات) الصديقات الثريات ، وتظل تطلب رقما بعد رقم وتتكلم ثم تتكلم وتدعو نفسها إلى الطعام وتفرض عليهن ألوانه ، حتى أضيق ذرعا وأختنق ضجرا من سماع التوافه قهرا .

نعود إلى ما قصت على من حوادث وعواقب تطفلها ، قالت لى يوما ساخطة : استعرت من جيرانى (فونوغرافا) أى حاكيا ، وعدة اسطوانات لأسمعها واستمتع بها ، وبعد بضعة أيام أعدت الأمانة إلى أصحابها ، وفى اليوم التالى من إعادة الأمانة ، استعار منى هؤلاء الجيران طشت الغسيل النحاس ، ومرت أيام وأسابيع ولم يعيدوا ما أخذوه ، فأرسلت فى طلبه فأجابونى قائلين : إنك افسدت وعطلت الحاكى ولن نعيد إليك طستك إلا إذا أصلحت ما أفسدت ، ثم أردفت : فتصورى مدى وقاحة هؤلاء الجيران ، فحبست ضحكة كادت تنفجر من قولها وذمها ماتأتى أكثر وأقبح منه وقلت لها : إنهم سعوا لحقهم ولاعيب ولا وقاحة فى هذا العمل ، قالت : ولكنى لم أفسد شيئا وأعدت لهم الحاكى سليما ، فقلت فى نفسى : من يدرى ، فلربما أراد الله تعالى لها الجزاء من جنس العمل ، فكم اعتدت وأفسدت مالغيرها ، وتذكرت ملابسى الجديدة الغالية التى لوثتها بألوان الطعام .

هذه السيدة كانت نموذجا للبخل الذى دفع بها إلى التطفل

والصفاقة ، فهى تقيم الصلاة وتصوم رمضان ، ولكنها لاتؤتى الزكاة ولم تحج ولا مرة واحدة فى حياتها بالرغم من أنها تستطيع إليه سبيلا ، وذلك لأن الصلاة والصيام لايكلفانها نفقة ، أما الزكاة والحج فإنهما يكلفانها كثيرا وهى تضن بالقليل على نفسها وابنتها الوحيدة ، ولذا فهى لاتؤدى إلا الفريضة (المجانية) التى لاتكلفها شيئا ، فلو كان للصلاة والصيام نفقات ، لما صلت ولا صامت [ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه] محمد ٣٨ .

ظلت هذه السيدة النجيبة تستثمر وتدخر وتسعى مااستطاعت للثراء وازدياد الرقم ، وهوداء كل شره بخيل ، داء لادواء له ، فكانت لا تأكل الخبز الطازج لتوفر بضعة ملاليم يوميا ، ولا تأكل ماتشتهى من ألوان الطعام إلا عند صديقاتها الثريات ، فتدعو نفسها على موائد لم تدع إليها بلا حياء .

فكم دعا البخل صاحبه إلى الصفاقة والشراهة وقتل كرامته فهان وذل ، وكم دعاه إلى الطمع وقتل ضميره فضل وذل ،

إذ مديده إلى جيب غيره وهو غنى ولم يخجل ، وجلس على مائدة لم يدع إليها واستجدى واستهدى وتطفل ، قال الرسول (ص) (يا ابن آدم تقول مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت)

وساعد الحظ السيدة نجيبة ، فبعد ماورثت من أمها جزءا من بيت صغير وضيعة متواضعة ورثت من أخيها الذى مات شابا لم يتزوج ، بقية البيت والضيعة ، كما ورثت من زوجها بيتا آخر فى شارع تجارى محترم ، فهدمت هذا البيت القديم وبنت فى موضعه عمارة صغيرة تؤجر للمكاتب وعيادات الأطباء ، فتضاعف دخلها أضعافا كثيرة ، كما تضاعف حرصها وبخلها وجشعها فلم تشكر المنعم عليها بإخراج زكاة هذه النعم ولم تحج بيته . بل دفعها الربح ولذة ازدياد الرقم إلى ازدياد الحرص والطمع ، وعاشت عيش الفقراء محرومة من مالها ومن كرامتها ومن احترامها ، ثم ماتت وتركت ما أدخرت لغيرها رغم أنفها ، كما تركت ثوابه وادخرت عقابه ، فيالها من غبية لانجيبة ، ويالها من سفيهة لالبيبه ، لأنها لم تفطن لقوله تعالى « وما تنفقوا من خير

فلا نفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » البقرة ٢٧٢ وقوله « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير » (البقرة ١١٠) .

إنها لن تجد شيئا عند الله إذ لم تقدم لنفسها شيئا من الخير ، بل ستجد العقاب عـلى ما أخرت من فرائض ، والحسرة على ضياع ماقدمت من صلاة وصوم ، لأن الله تعالى لا يتقبل عبادة من مصر على عصيانه والتقصير فى حقه والاستخفاف بأمره ، فاسمع لقوله [من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون] (هود ١٥ ، ١٦) وقوله « فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيـاة الدنيا » (النجم ٢٩) .

نعم ، انها لم ترد إلا الحياة الدنيا ولم تسع الا لها وألهاها التكاثر عن اليوم الآخر ، وآثرت الادخار للدنيا على الادخار

للاخرة «بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وابقى» (الأعلى ١٦ ، ١٧) .

* * *

واعجب أيها القارىء الكريم لمتطفلة اخرى وهى السيدة صبرية التى تستطعم وتستهدى ، وتستخدم وتستجدى ، فتتزلف كالكلب ، وتتربص كالذئب ، وتحوم كالنحلة ، وتسطو كالنملة ، وتلازم كالعلة ، هذه الوقحة التى تحاول أن تأخذ من غيرها بلا مقابل ، الجشعة التى يلذلها أن تأكل أموال الناس بالباطل ، فما أوقح هذه الذبابة التى تحوم حولك وتقذف بنفسها فى شرابك وطعامك وتلازمك رغم أنفك وتزعجك بطنينها ، هذه السيدة تقيم فى دارك أسابيع بل أشهرا كأنها فى فندق تتحكم فى خدمك ومتاعك ووقتك ومالك . وتسرف فى الطلبات بلا حياء مهما كلفك ذلك . بل وتستخدم سيارك ولا تستحى أن تعطلك عن أعمالك . فهى تسطو على حريتك ووقتك وتنغص عليك عيشك . ثم تمن عليك بأنها مكثت معك طويلا فكيف لاتنعم بمر حديثها ولاتسعد بعذاب قربها .

نكبت بمعرفة السيدة صبرية التى كانت تسمح لنفسها بأن تقيم عندنا هى وأختها عدة أسابيع ولا تستحيان من أن تقضيا عندنا كل شهر رمضان ؛ وكانت تفرض علينا كل صباح أن نشترى لها علبتين من أغلى وأعلى أنواع التبغ ، فاذا ما أخطأ الخادم مرة وأحضر نوعا آخر ، ينقص ثمنه عن المرغوب قليلا ، غضبت وانتهرته قائلة : إنى لم أتعود تدخين غير النوع الفاخر الغالى : فإياك أن تحضر لى غيره مرة ثانية ، وكانت تأمر الطباخ بإعداد ما تحب وما تشتهى من أنواع اللحوم والخضر والحلوى فى الإفطار وفى السحور ، كما كانت لا تكف عن الملازمة الأليمة والثرثرة البغيضة إلا ساعتين فى الصباح عند ما يرسل إليها زوجى سيارته كما أمرت ، لتعود الوالدات وتعمل لهن اللازم ، إذ كانت قابلة .

وكانت تأمر الخدم بغسل ثيابها وكيها فى دقة وإتقان ، كما تأمرهم بجمع عظام ما أكلناه من دجاج وغيره لتطعم به كلبها ، وتذهب كل صباح بعد التجول والمرور على الوالدات بسيارتنا كما تريد ، إلى منزلها فى أواخر حى (شبرا) لتوصل العظام

لكلبها فتستهلك (بنزينا) يزيد ثمنه على ثمن اللحم لا العظم ، ولكنه ليس من جيبها إذ لا يهمها ما خرج من جيب غيرها ، بل انها نسيت مرة أن تأخذ معها العظام كالعادة لكلبها العزيز ، فعادت من أواخر شبرا إلى منزلنا فى جاردن سيتى لتأخذ العظام ، ثم عادت ثانية إلى بيتها بشبرا ولم تستح أن تقطع هذه المسافة الطويلة أربع مرات ذهابا وإيابا من أجل عظام لاتساوى بضعة ملاليم ، حقا من تجرد من الحياء ، فعل مايشاء .

وفى يوم من الأيام طلبت منى فى جرأة ملابس من ملابسى الداخلية ، ثم فتحت الخزانة وأخذت منها ثلاث قطع كنت أحتفظ بها لجمال نسيجها الثمين ودقة تطريزها ، إغتصبت أجمل وأغلى ماعندى من ملابس جديدة لترتديها بعد اغتسالها .

وسألتنى مرة اخرى أثناء زيارتها لى : هل صنعت رداء من النسيج (المودة) وكان حينئذ نسيجا عريضا غالى الثمن ، فقلت نعم ، إذ لم أتعود الكذب لأنجو من الاعتداء

والاغتصاب ، ولأنقذ نفسى من سرقه الشره الطماع ، ولسوء حظى أعجبها الرداء ووافق قياسها عند ما ارتدته فقالت : كم أنا سعيدة الحظ بهذا الرداء الجميل الثمين ، وسأزور الآن فلانة هانم وأنا أنيقة رشيقة (وشيك) أما أنت فمرى الخياطة بأن تصنع لك غيره فى سرعة .

وهكذا خرجت من زيارتى بغنيمة كما تشتهى ، وما أصدق الرسول (ص) فى قوله [ما أخذ بسيف الحياء فهو إغتصاب) نعم . فكم قاسيت هذا الأغتصاب لحيائى ممن فقد الحياء ، ولعدم تعودى الجرأة على من يعتدى على بوقاحته لسذاجتى وعدم تدريبى على الدفاع عن نفسى وعن مصلحتى ، ولذا اعتدى على المتطفلون ، ولم يستح منى الوقحون ، لأنى أخجل من أن أخجل غيرى ، وذلك بالرغم من أنى أستنكر المنكر وأبغض البغيض وأحتقر الحقير ، ولكنى أستحى من أن أرفض طلبا وأن أقول لأحد · لا ، مهما كان صفيقا .

كان يعترينى الذعر عندما أسمع صوتها من بعيد فأعلم أنها جاءت لزيارتى ، بل جاءت لسرقتى ، فأسارع إلى إخفاء كل

جميل وكل ثمين من فوق منضدة الزينة ، وأبادر إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه حتى لا أفجع فى شىء أحبه وأعتز به ، إذ كانت تدور عيناها اللامعتان باحثة عن شىء يعجبها أو ينفعها فى كل الأركان وعلى الجدران وفى كل مكان ، فما الهدف من الزيارة إلا أن تأكل وتأخذ فتربح .

وكانت تقضى معنا أياما فى المصيف بلا دعوة ، ولا يهمها أن تضايق غيرها لضيق المكان وعدم استعداده لوجودها ، فلا تستحى من أن تنام فى سرير أولادى وتتركهم ينامون على الأرض ، كما لاتستحى من أن تخرج معنا إلى كل نزهة وتلازمنا قهرا ، فنترك من أجلها بعض اطفالنا يبكون لحرمانهم الخروج والتنزه ، إذ لم تتسع السيارة لهم ولها ، وهى لاتستحى كذلك من مجيئها على غرة هى وأختها فى ميعاد الغداء فتأكلان بعض طعامنا المعدلنا ، فنجوع لتشبعا ، ونضجر لتتمتعا ، وهكذا عشت أيام حياتى أقاسى اعتداء الوقاحة والتطفل لأنى استحى ممن لايستحى .

(لايحسبن قارىء أنى بالغت فيما كتبت أوادعيت . بل إنى ما كتبت إلا بعض مارأيت وما سمعت) .

الإيمان بالقرآن

رأيت أن من يفهم القرآن فهما صحيحا ، ويبحث فى معانيه بحثا دقيقا ، ويتأمل فى آياته تأملا عميقا ، فيشعر بقوته وبلاغته وحكمته ، وكان له عقل سليم مجرد من التعصب ، لابد أن يؤمن به ويمنزله إيمانا صادقا ثابتا لاتشوبه شائبة .

نعم ، لابد للعقل السليم والقلب الكريم أن يقدر جمال وكمال كتاب الله عندما يرى مابه من حكم وعبر ، وأوامر وشرائع ، وبلاغة تعبير ودقة تصوير ، وإعجاز لغوى وعلمى ؟ يتأمله العقل مأخوذا مشدوها ، فيوقن بصدقه ويؤمن به حق الإيمان .

فمن المحال أن يشعر قلب بهذه القوة وهذه الروعة ، ولا يخضع لها ويخشع سعيدا بمعرفة ربه ، مطمئنا راضيا بما قضاه ، ساعيا ما استطاع لنيل رضاه .

لقد ولج نور القرآن الثاقب فى قلوب كريمة فانارها وهداها إلى الحق ، فى مصر وفى باريس وفى سويسرا وأمريكا ، وأراد الله سبحانه أن نتعرف على بعض هؤلاء الذين أسلموا ، عن طريق الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف ، وعن طريق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، فزارتنا السيدة حوة التى عشقت القرآن الكريم فأسلمت ، وهى دكتورة باريسيه مثقفة تدرس فى (السوربون) ، جاءت إلى القاهرة لتلقى محاضرات فى الأزهر عن الإسلام بعدة لغات ولتسعى لتعلم العربية ما استطاعت ، وهى تقول : إنى لم أخسر شيئا بتركى المسيحية واعتناقى الإسلام ، بل إنى ربحت كثيرا .

وسألناها كيف أسلمت فقالت : كنت أسعى لنيل (الدكتوراه) فى تخصص الأديان ، فبحثت فى دين الإسلام كما بحثت فى غيره وما إن قرأت سورة (العلق) حتى أيقنت بأن القرآن كلام الله لا كلام بشر ، إذ كيف عرف محمد أن الجنين ينشأ عن علق ولم يكن لديه مجهر ليراه به .

ثم قالت : وبعد ذلك ازددت إيمانا بالقرآن كلما ازددت علما

بمعانيه العظيمة ، وقبل إيمانى بالقرآن لم أكن أو من بالمسيحية بعقلى ولكنى كنت أومن بالله بقلبى ، أى كنت مؤمنة بالله ولم أكن أومن بما لايقبله عقلى ، وما أجمل ماقصت علينا فقالت : كنت طفلة فى مدرسة الراهبات فسمعت إحداهن تقول للبنات : إن السيدة مريم العذراء لم تكن تشعر بإغراء ، فقلت لها : إذن ليس لها أجر على صبر لأنها لم تقاوم ولم تقمع شهوة ، وهذا القول يدل على عقل ذكى بالرغم من طفولتها .

هذه السيدة العظيمة ، عادت إلينا بعد سنة من باريس ، ومعها شابان من تلاميذها فى سن الرابعة والعشرين ، جاء ليدرسا بالقاهرة ، وقد أسلما عن اقتناع وإعجاب بما فهماه من القرآن فى محاضراتها ، وسمى أحدهما نفسه يحيى كما أسلمت راهبة بعد سماعها محاضرة من محاضراتها عن الإسلام والقرآن واعترافها بأنها آمنت بكتاب الله الكريم فأسلمت ، إنها تأثرت فأثرت واقتنعت فأقنعت ، واهتدت فهدت إلى الصراط المستقيم .

ومن العجب أن هذه الراهبة التى اقتنعت فأسلمت وسمت نفسها طاهرة ، صلت وصامت فى الدير ، ولم تستطع الراهبات أن

يقنعها بانها مخطئة لأنها على حق ، فاصرت على إيمانها بالقرآن بالرغم من محاولاتهن الدائبة ، كما أصرت على ترك الدير والسفر الى مصر لتعيش فى بلد إسلامى وتنعم بالهدى والفلاح .

أما الأستاذ فارض وزوجته عائشة ، اللذان جاءا إلى القاهرة ليتعلما اللغة العربية فيفهما معنى القرآن الكريم بالنص العربى ، الأصلى ، وتركا وظيفتهما وثراءهما وعيشتهما فى ترف وبذخ أمريكا ، إلى عيش الكفاف والحرمان من الضروريات ، عيش العمل الدائب والتعب والفقر والضيق ليستمتعا بحلاوة القرآن ، والسعادة بالإسلام واطمئنان القلب فى نور الحق والايمان .

اجتمعنا عدة مرات مع فارض وزوجته عائشة فى بيتنا وفى بيوت أصدقائنا الأتقياء ، وكان معنا السويسرية التى أسلمت ، والأستاذ محمد مجدى مرجان القبطى الذى أسلم وحوه والشابان ، كما كان معنا سيدات تقيات محتشمات وسادة أتقياء ، وذلك لنعرف ماالذى دعا هذين الزوجين الأمريكيين إلى هذا الايمان الصحيح وكيف أسلما ، ولنشعرها باهتمامنا بهما واريهما إعجابنا وتقديرنا لهما ، ولنساعدهما دينيا وماديا بقدر المستطاع .

قال فارض : كفرت بالله لما رايت فى المسيحية من شرك وغوامض لاتوافق العقل السليم ، فدرست جميع الأديان لأبحث عن دين يهدى إلى الحق والايمان بالله ، فلم أجد دينا يستطيع أن يؤمن به عقلى ، ولكنى لم أدرس الإسلام قط إذ قيل لى إنه دين عصابات وحرب ونهب وسلب وغنائم وهكذا كفرت بالله لأنى لم أجد دينا يهدينى إليه ويعرفنى به حق المعرفه ، ولم أجد مايقنعنى ويؤثر فى قلبى فهمت على وجهى فى الحانات الليلية ، وعشت فى قصف ورقص وشرب خمر ولعب ميسر ، ولم أترك إثما إلا ارتكبته ، ولم أترك منكرا إلاجربته .

ومرت عدة سنين وأنا على هذه الحال ، حتى ضجرت نفسى هذه المنكرات ، وسئمت هذه اللذات والشهوات ، وقلت فى نفسى : من المحال أن يوجد المرء فى هذه الحياة الدنيا بلا هدف إلالهذه التفاهات والنزوات ، ولابد من وجود آله أوجد الإنسان وكل هذا الوجود لهدف محترم كريم .

وفى ليلة من الليالى ، بعد رقص وقصف وطرب ، شعرت بضيق شديد وكآبة ، فلجأت إلى غرفة خالية لأستريح من هذا

الصخب البغيض ، واشمازت نفسى من منظر الراقصين السكارى وهم يقفزون كالقردة لاهين صاخبين ، وعافت نفسى هذا العيش التافه ، وما إن وقفت برهـــة فى هذه الغرفة منفردا ، حتى خررت ساجدا على الأرض وانهمرت دموعى متدفقة لخشوعى ، وناجيت ربى قائلا : يا ربى لو كنت موجوداً دلنى عليك ، إنى اريد أن أعرفك وأعبدك يا ربى وفى شـوق إليك فكيف أجدك ؟ ومن اين الوصول إليك ؟

ومر أحـد أصدقائى فوجدنى ساجداً فقال لى متعجبا : إنك ساجد كما يسجد المسلمون ، فقلت له مستفهما ، هـــل المسلمون يسجدون كذلك ويضعون جبينهم على الأرض ؟ قال: نعم ، قلت : إلى القرآ ن ، أين القرآن لأقراه ؟ وهكذا قرأت القرآن بالانجليزية ، فما إن فهمت شيئا من روائعه حتى آمنت بالقرآن وبمن أنزله ، وكلما ازددت إيمانا وتعلقا بالقرآن الكريم وسارعت إلى تنفيذ أوامره التى تنهى عن كل شر فتنقذ من كل متر .

انتهيت عن الخمر والميسر والرقص وأكل لحم الخنزير وغيره ، وأقمت الصلاة وصمت رمضان كما أمر تعالى ، ولكننا تأكدنا

آنا وزوجتى عائشة اننا من المحال ان نفهم القرآن فهما صحيحا بالإنجليزية ولابد لنا من تعلم اللغة العربية لنفهمه ، ولذا تركنا بلدنا وعملنا وربحنا لنكون فى الأزهر مسلمين حقيقيين ، ولنفهم القرآن كما ينبغى فنسعد بما فيه من كنوز .

فتصور أيها القارىء الكريم ، هذا الذى يسعى ليتعلم العربية ليفهم القرآن ويضحى فى سبيل ذلك بالكثير ويعيش فى فقر وحرمان من الضروريات ، بعد ما كان يرتع فى المتع والكماليات ، ويصبر على كل ذلك فى سبيل الله ، وتصوركم من أهل القرآن هجروه ونبذوه وراء ظهورهم ، ولم يستنيروا بنوره ولم ينتفعوا بكنوزه ، إذ لم يحاولوا فهمه وهم يعرفون العربية ، وصدق فارض فى قوله بعد ما رأى مسلمى مصر : إن هؤلاء المسلمين ينبغى لهم أن يسلموا من جديد وأن يؤمنوا بالقرآن حق الإيمان ، أى إنهم ليسوا مسلمين ولا مؤمنين .

وقال له أحدنا : ما أسعدك بهذا الإيمان العظيم وهذا الهدى ، فقال : بل ما أسعدكم بالاسلام ، فقد نشأتم فى دين الحق وأنعم الله تعالى عليكم بنعمة القرآن ونعمة اللغة العربية بلا تعب ولاسعى لها وهذه نعمة عظيمة يجب أن تقدروها وتشكروها ؛ ولكنى لمزيد

الأسف أرى أكثر المسلمين لم يقدروا الاسـلام ولم يشعروا بنعمة القرآن الذى نغبطهم عليه ، ونحن نقاسى ونضحى لنستطيع فهمه بالعربية ، وهم يستطيعون ولكنهم لايحاولون .

نعم نحن نستطيع فهمه وتنفيذ أمره ، ولكننا أعرضنا عنه فأعرضنا عن سعادتنا ونجاتنا فى الدارين ، ولم نقدر نعمة القرآن لأننا نسينا الله فأنسانا أنفسنا ، إننا انصرفنا عن أوامر القرآن إلى أوامر الشيطان ، ولم نبال برضا الله ولم نسع إلا لمتاع الدنيـــا .

وقالت لى عائشة : إنى جئت إلى بلد إسلامى شرقى ، وكنت أنتظر أن أرى النساء هنا فى احتشام يرتدين كما أمر الله فى القرآن ، ولكنى لمزيد الأسف وجدت أنهن يرتدين كما ترتدى نساء أمريكا فى استخفاف وعدم حياء ، فكيف يجرؤن على ذلك ياسيدتى ؟ ؟

فخجلت من هذا السؤال وقلت لها : إن هؤلاء السيدات لسن حقيقة من المسلمات المؤمنات ، ولا يفهمن شيئا من القرآن ولايحاولن أن يفهمن ولايعبأن باوامر الله . إنهن مسلمات بالاسم

فقط والوراثة ، إذ ولدن ممن يزعمون الإسلام ، والإسلام برىء منهم بعيد عنهم .

وعائشة تلبس كما أمر القرآن الملابس الطويلة الواسعة السابغة ، وتختمر بخمار سميك لايبدو منه شعرة واحدة من شعرها الأشقر الجميل ، وهى جميلة الوجه بيضاء البشرة زرقاء العينين وردية الخدين رشيقة القوام ، ولابزيد سنها على السادسة والعشرين ، فلقد حباها تعالى جمال الخلق والخلق .

صلينا جماعة وراء فارض وكنا نزيد على الثلاثين من رجال ونساء ، وكم عجبت من خشوعه وقراءته القرآن فى ترتيل ، وكان يقف مكتوف اليدين فى أدب ، مطأطىء الرأس فى ذل وانكسار ، وكان صوته يتهدج تأثرا كأنه يبكى ، فأثر كل ذلك فى نفسى وانهمرت دموعى على الأرض وأنا ساجدة .

وما أجمل ما قالت إحدى السيدات وهى تكفكف دموعها مثلى بعد الصلاة ، قالت : إن إيمان هذين الزوجين وخشوعها يخجلنا من أنفسنا ويستوجب منا الحياء ، إذ كيف يفوقاننا علما وخشوعا نحن أهل القرآن وأبناء الإسلام ، فياحسرتى على

المسلمين الغافلين عن ربهم ! المستخفين بذنوبهم ، الساعين لعذابهم .

أما الأستاذ محمد محدى مرجان الذى لايزيد سنه على التاسعة والعشرين ، فقد أثر القرآن الكريم فى نفسه ببلاغته وقوته وعرف أنه الحق ، وأن المسيحية وأهلها أخطئوا فى ادعائهم أن الله ثالث ثلاثة ، وأن ذلك حط من قدر الله عز وجل ، فنفر قلبه الكريم من هذا الظلم العظيم ، وأسلم عن علم ويقين معجبا بما فى كتاب الله من حق وصدق ، يجذب القلب ويقدس الرب ، الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ولشدة إعجابه بالقرآن الكريم وما به من تقدير لله حق قدره ومن وصف لصفاته ، كتب كتاب (الله واحد أم ثالوث) شرح فيه شرحا بليغا ما أعجبه من توحيد وتقدير لله تعالى فى كتابه الكريم ، دعاه إلى الإسلام وهداه إلى الصراط المستقيم .

فاسمع أيها القارى الكريم عظيم ما كتب هذا العقل السليم والقلب الكريم ، وتأمل ما يقول عقله عن العقل : هذا العقل

الذى يرشدنا فى كافة امورنا ، ويقود خطانا فى جميع طرقنا ، وفى شئون دنيانا وآخرتنا ، والذى منحنا الله تعالى بواسطته القدرة على التحكم والسيطرة فى بقية المخلوقات والموجودات ، تسيرها بعقولنا وفق إرادتنا ، والذى بسببه خضعنا للثواب والعقاب ، وأصبحنا مسئولين عن أعمالنا فى الحياة وبعد الممات وخاطبتنا رسالات السماء وتشريعات الأرض ، لنفهمها بعقولنا ونتبعها بإدراكنا ، ونحاسب عليها بعد ذلك ثوابا وعقابا ، ولولا هذا العقل لما حاسبنا أحد ولما سألنا سائل عما ناتيه .

هذا العقل قبس العلم الإلهى غير المحدود ، وشعاع الحكمة الإلهية المتناهية ، إذا ما عرضنا عليه قضية الثالوث ، وحاولنا أن نناقش تفصيلاتها على ضوئه ، فلاشك أن الفشل سيكون حليفنا فى كافة المحاولات مهما بذلنا من جهد .

إننا إذا افترضنا مع أصحاب الثالوث أن هناك ثلاثة آلهة أو ثلاثة أقانيم إلهية أزلية ، فإما أن تكون هذه الآلهة الثلاثة قد اتفقت سوياً على خلق الكون وترتيب نظامه ، وإما أن تكون قد اختلفت فيما بينها حول ذلك .

فإذا كانت الأقانيم أو الآلهة الثلاثة قد اتفقت على أن تقوم معا بهذه المهمة فعنى ذلك احتياج كل أقنوم أو إله منها إلى الآخر وعدم استقلال أى منها فى عمله وعجز أى إله منها عن القيام بالعمل وحده ، وهذا العجز ينفى عنه صفة الألوهية ، ذلك أن العجز من صفات المخلوقات ، أما الإله فإنه لايمكن أن يكون عاجزا ولا أن تتوقف قدرته على سواه .

فانظر أيها القارىء الكريم إلى بديع ما كتب وعميق ما فكر وبليغ ما عبر ، وكيف كشف لنا ووصف سخافة وتفاهة الثالوث وبلاهة من يؤمن به ويرتاح إليه .

واسمع جميل ما كتب فى موضع آخر من الكتاب : كيف يؤمن المرء بعقيدة لا يفهمها ؟؟ وكيف يمكنه أن يشرح لغيره ما لايفهمه هو ؟ ؟

وكيف يحاول أن يقسر غيره على الاعتقاد بما لايفهمون ولا يفهم ؟ ؟

بل كيف يصل به التمادى إلى ادعاء اعتناق دين التوحيد

الأسمى لعقيدة التالوث التى ما جاء هذا الدين إلا لتحرير العقول والقلوب من أدرانها وترهلتها .

ثم ذكر لنا آية كريمة يقول القرآن فيها « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (سورة المؤمنين آية ٩١) .

نعم ، إن وجود أكثر من إله واحد مدعاة للتناحر بين الآلهة ، ومدعاة لتحزب كل إله منها لمخلوقاته من البشر والكائنات وتفضيلهم عن مخلوقات غيره ، فهذا يحيي مخلوقاته ويفنى مخلوقات غيره ، وهذا يغنى مخلوقاته ويفقر مخلوقات غيره ، وهذا يسعد مخلوقاته ويشقى مخلوقات غيره ، إله يشيد وآخر يهدم ، إله يرفع وإله يخفض ، هكذا تتعدد الميول وتتغاير الآراء وتتمايز النزعات بين الالهة .

ثم يقدم القرآن الكريم الدليل العقلى الواضح الذى يؤكد استحالة وجود أكثر من إله واحد فى الكون فيقول عن السماوات والأرض « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » (الأنبياء ٢٢)

نعم ، إن تعدد الآلهة يؤدى إلى انقسامها وتنازعها ، وإلى تنابذها وتناحرها ، وفى خضم هـذا الصراع تفسد السماوات والأرض وتفنى الموجودات ويحل بالكون الدمار ، إلى أن قال :

لقد جاء محمد ، جاء ليبعد الطغام ، ويفض الزحام ، وينير الظلام ، لتبدو الحقيقة واضحة للعيان ، تنطق بالتوحيد فى فى أجلى بيان .

تأمل أيها القارىء الكريم عقل وقول هذا الشاب الذى تشأ منذ طفولته فى شرك المسيحية ، كيف نفر عقله السليم من هذا الضلال فاندفع إلى البحث فى كتاب الله فى تعمق وتدبر وتأمل حتى اهتدى الى الحق بسيمه ، واستنار بنور القرآن بعقله ، فنجا من غمرة الجهل والضلال بجهده .

ثم تأمل المسلم الذى نشأ فى دين التوحيد ، كيف ضل وزل وذل للوثنية ، وكيف أعرض عن نور الحق لشقائه ، وكيف اتبع اتباعا أعمى جهل آبائه ، كما خضع صاغر مستسلما لأهوائه ، وما أصدق وصف الله تعالى له « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء » (الأحقاف ٢٦) .

الجهل

رأيت أن الجهل آفة تنشأ عنها كل الآفات ، ورذيلة تنبع منها كل الموبقات ، ونقيصة تدفع إلى كل المنكرات ، فهو ظلمة تعمى القلب والعينين ، وهو غفلة تصم العقل والأذنين ، فما أضل المرء وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فغفل عن ربه وعن نفسه ، إلا الجهل الذى يسوق إلى كل شر ويبعد عن كل خير .

وكل جاهل استسلم لجهله وسارع إلى تنفيذ أمره ، ولم يحاول الخلاص من أسره وشره ، قد ابتعد عن إرشاد عقله ، فقاسى شر عواقب عمله ، لأن الله سبحانه زود الإنسان بآلة الفهم التى تذكره وتحذره وتهديه ، فمن لم يتحر الخير ويتوق الشر وأعرض عن الفهم والهدى باختياره ، فقد تعمد الخطأ والضلال وأراد لنفسه الجهل فجهل ، ولو أراد لنفسه العلم لعلم ، وكل من لا يحاول الفهم بعقله ليرشده فينقذه ويسعده ، مسئول عما

يأتيه من أخطاء وشرور وذنوب ، إذ اعرض عما يجب أن يعلمه وهو فى استطاعته ، فاثبت استخفافه باوامر خالقه ومولاه وعدم اكتراثه برضاه .

ولا يحسبن جاهل أن الجهل ينقذه من العقاب وهو مصر على ذنبه وعلى جهله ، ولم يبادر إلى التوبة والإصلاح كما بين تعالى فى قوله « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » « الأنعام ٥٤ » .

فلا بد للجاهل أن يحاول الخلاص من جهله ، ليغفر الله له ما تقدم من ذنبه ، لأن الجهل نقيصة اختيارية لاعاهة فطرية يستطيع أن ينجو منها كل من حاول النجاة وكان له قلب ، ولذا من أراد لنفسه الجهل بالدين فإنه مسئول ومؤاخذ عن كل ما يعمل من شر ، ولن ينجيه من العقاب اعتذاره بجهل أوامر كتاب الله الذى أرسله له ليتدبره ويتفهمه ، لا ليهمله فيجهله ، قال تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » « سورة ص ٢٩ »

تامل ايها القارىء الكريم كيف نشر الجهل الفساد ، واضل وأذل العباد ، ودفع بالمرء الى عصيان ربه فلم يأبه لذنبه ولم يعبأ بغضبه .

فمن أعجب ما رأيت من شر الجهل ، هذه السيدة المثقفة التى سعت للعلم فنالت شهادات كبيرة وعرفت كثيرا من أمور الحياة الدنيا ، ولكنها لم تعرف أهم وأعظم شيء وهو دينها الذى يهديها الى الفلاح فى الدارين ، وما أصدق من قال : إن من العلم جهلا ، لأن من جهل دينه لم يعرف ربه وأوامره ، ومن المحال أن يؤمن المرء بما لايعرفه وأن يخضع لما يجهله .

هذه السيدة تزعم بلا وعى ولا تفكير أن الله سبحانه خلق بعض الناس شريرين والبعض الآخر خيرين ، فكيف يعاقب ويكافىء على شيء من عمله لامن عمل الناس واختيارهم ، فكل الناس خلقوا كما أراد الله تعالى ، فلماذا يسألون عن عملهم وهم مجبورون مرغمون عليه ، وما ذنب من نشأ فى بيئته سيئة فتعود ما نشأ عليه من شر ؟

هذه السيدة (المسلمة) التى لم تعرف إلا اللغة الفرنسية ،

وحصرت كل وقتها وكل همها لتنال شهادات ، ولم تكرس شيئا من عقلها ووقتها لتستنير بما في القرآن من آيات ، تنتقد ما لا تفهم ، ولم تحاول أن تسعى لتعلم ، سألتها قائلة : من الذى انتقى واشترى هذا النسيج الجميل ثم صنعه لك رداء انيقا ، أأنت أم الله ؟ قالت : انا . قلت : ومن الذى صبغ وجهك بهذه الأصباغ وكحل عينيك الجميلتين ، أأنت أم الله ؟ قالت : أنا طبعا ، قلت : ومن الذى صفف شعرك هكذا هذا التصفيف الجميل ، أأنت أم الله ؟ قالت : أنا طبعا .

قلت : يجب إذن أن تعلمى أن كل ما تعمليه باختيارك لابد أن تسألى عنه ، لأنك أتيته بمحض إرادتك غير مكرهة عليه ، إنك لم ترغمى مطلقا على عمل تعمليه طاعة لعقلك أو لربك ، أو طاعة لشهوتك وهواك ، أما عمل الله جل وعلا ، وإرادته النافذة القاهرة لك بالرغم منك ، وهى شكلك ولونك وطولك ويوم ميلادك وموتك ، وذكاؤك واستعداد جسمك وعقلك ، وقوة بصرك وسمعك ، وما يصيبك به الله تعالى من مصائب وابتلاء أو غيرها الخ ، فلا تلامين ولا تؤاخذين عليها لأنها ليست من عملك ، ولا تستطيعين تغيير شيء منها ، واعلمى انك تسببين

إلى الرحمن الرحيم الظلم بقولك ، وتقترفين إثما عظيما بسوء ظنك بمن يأمر بالعدل والإحسان لعدله وإحسانه ، ويغفر لمن تاب وأصلح ولم يصر على عصيانه .

وما أصدق وأجمل ما كتب فضيلة الشيخ محمد الغزالى ، هذا العقل الفياض الذى تنبجس منه المعانى البليغة فتتدفق من قلمه على القرطاس أنهارا تجرى فتروى العقول وتحيى وتنمى الإيمان فى القلوب ، قال : إن إضلال الله لشخص معناه : أن هذا الشخص آثر الغى على الرشاد فأقره الله على مراده وتمم له مايبغى لنفسه « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين » « الصف ٥ » وانظر إلى قيمة التنوية بالاتجاه البشرى المعتاد « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غيرسبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم » « النساء ١١٥ » فهل فى غموض فى إطلاق المشيئة ؟ ؟ لا ، إن معنى قوله تعالى : « يضل من يشاء » لايعدو قوله « وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » « البقرة ٢٦ ٢٧٦ »

وكذلك الحال فى « يهدى من يشاء » انظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية قول فى الحق وهو يتكلم عن إرادته « قل إن الله

يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألابذكر الله تطمئن القلوب » « الرعد ٢٧ ، ٢٨ » فهو يهدى إليه من اناب « إن الله لايهدى القوم الفاسقين » اجعل أيها القارىء هـذا المصباح بين يديك ، وسر فى نوره بين شتى السور فلن تجد فى دين الله قلقا أو اضطرابا .

أضيف إلى قـول فضيلة الشيخ محمد الغزالى قول الله تعـالى « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » « الأعراف ١٦٨ » وقوله « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » « السجدة ٢١ » فمن رحمة الله الواسعة ، أنه سبحانه لايضل الفاسقين ولايزيغ قلوب الذين زاغوا ، إلا بعد أن يبلوهم بالحسنات لعلهم يشكرون فيخجلون من عصيانهم ، كما يبلوهم بالسيئات ويذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون إلى ربهم تائبين خوفا من عقابه وطمعا فى ثوابه ، فإنه سبحانه يحذرهم وينذرهم قبل مايضلهم ، ويهملهم ، فإذا ما أصروا واستمروا على عصيانهم وزاغوا ، أزاغ الله قلوبهم كما أكـد فى قـوله : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » « الحشر ١٩ » .

نعود إلى هـذه السيدة المتعلمة الجاهلة التى لاتبالى بعصيان ربها لأنها لاتخشاه ، وهى لاتخشى غضبه وعقابه لأنها لاتعرفه ، فمعرفتها له معرفة سطحية سمعت عنها ممن لايعرفونه فلا يخشونه، فاتبعتهم اتباعا أعمى فى ضلالهم ، وعاشت صـاغرة فى ظلمات جهلها ، ولم تحاول النجاة من غمرة ضلالها ، بل أفرطت فيما تحب ، وفرطت فيما يجب ، فاستحوذت على عقلها الشهوات ؛ وملات كل وقتها الـنزوات وعاشت فى غيبوبه اللذات ، ولم تكترث بما فى القرآن من آيات ، ولم تنفذ ماأمرها به من عبادات ، فكانت جهلة بالرغم من ثقافتها ، تافهة بالرغم من شهادتها ، حقيرة بالرغم من جمالها وأناقتها .

ومن العجب أن تعبد هذه السيده وغيرها (المودة) فتطيع أوامرها صاغرة ، وتعصى من أجلها أوامر الله ساخـرة ، فتقدم طاعتها على طاعة ربها ، ولاتبالى بغضبه وتصر على ذنبها وتسارع إلى تنفيذ اوامرها مهما كانت تزرى بها، اليس ذلك عبـادة ؟

إنها سارعت إلى إطالة ردائها لأن آله المودة أمر ، ولم تستح من رفضها إطالته مستنكرة لأن الله أمر ، لقد سهل الأمر فى

طاعة الهوى وصعب فى طاعة الرب ، فأحبت ما استنكرته وسارعت إلى ما أعرضت عنه من أجل الهوى والجهل ، كيف لاتستحى أمن تقديم هواها على طاعة الله . ؟ وكيف تخشى مخالفة المودة ولاتخشاه ، فهل فوق ذلك جهـــل وبعد عن الإسلام ، إن علما لاينقذها مما يؤذيها ، ولايحميها من الجهل ولا ينجيها ، ولاينير لها طريق الله ولايهديها ، لاقيمة له ولانفع منـــه .

وما أصدق من قال : إن من العلم جهلا ، فكم من عالم ضل عن سبيل الله بالرغم من كثرة علمه وعظيم خبرته ، لأنه حصر كل جهده وكل وعيه فى درس علم من العلوم ، ولكنه لم يفكر فى خالق الكون وقوته وقدرته ، فيبلغ الذروة فى العلم ، ويهوى إلى الحضيض فى الخلق ، فكم من علم أبعد عن الله فأفسد ، وكم من علم أنار البصيرة فأرشد .

ومن المحال ان يؤمن إيمانا صحيحا بالله ، الجاهل الذى لم يفهم فهما صحيحا آيات القرآن الكريم ، ولم يتفكر فى خـــلق السماوات والأرض وما بينهما ، بل أعرض عن التفكير فى بديع صنع الله ليفكر فى أوامر هواه ، وتمادى فى أمور الدنيا

والربح الكثير لها ولم يحاول ، ان يربح شيئا للاخرة ولم يسع لها ، وانصرف عقله الذاهل الغارق فى غمرة شهوته ومهنته ، عن الله وكتابه الكريم وطاعته ، فظل ناسيا لربه ونفسه ولم يحاول الخلاص من غفلته .

إن الإيمان يقين واعتقاد ، فكيف يوقن ويعتقد جاهل بما يجهله ، وكيف يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من يجهل رسالته . ؟ وكيف يشكر ربه من لم يقدر نعمته ورحمته ، وكيف يصبر على ابتلائه ولايسخط على قضائه من لم يعرف حكمته ، وكيف يخشاه ويتقى غضبه من لم يعرفه ولم يقدر جحيمه و لاجنته ؟؟ [إنما يخشى الله من عباده العلماء] « فاطر ٢٨»

وما أصدق ماقال الأستاذ عبد الرزاق نوفل : فأن تشهد أن لا إله إلا الله ، هو أعلى مراتب الاعتقاد واليقين ، فالشهادة غير السماع ، والشهادة غير الظن والعلم ، اما ان يشهد المرء بعينيه فلا سبيل بعده إلى ظن أو شك ، وهكذا طالبنا الإسلام فى أول ركن من أركانه ، أن نشهد بأعيننا أن لا إله إلا الله ، وما دامت العين رأت شواهد الوجود ؛ وبصرت بأدلة التوحيد ، فقد آمن القلب واطمأن العقل ، واصبح

الإنسان بذلك فى حصانة من كل هزة ، وفى أمان من كل زيغ أو شبهة .

لذلك فقد قرر القرآن الكريم أن مرتبة الشهود بوجود الله ووحدانيته مما ينالها الإنسان بجده واجتهاده ، وأن العلماء يصلون عن طريق علمهم إلى هذه المرتبه وبذلك فهم بعد الملائكة الذين شاهدوا بأعينهم الحقيقة الأولى المؤكدة فى الحياة وفى الوجود ، ويقول فى ذلك القرآن الكريم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »« آل عمران ١٨ ».

أما أن يشهد الإنسان أن محمدا رسول الله ؛ فإن القرآن الكريم هو طريق الشهادة ، فلينظر الإنسان بعينيه إلى مافيه من آيات بينات ؛ وبها لا يملك إلا أن يشهد أن محمدا رسول الله الذى أوحى سبحانه له هذه الآيات .

أضيف إلى قول الأستاذ نوفل أن معنى المشاهدة فى لسان العرب هو المعاينة . والشاهد هو العالم الذى يبين ما علمه ، والشاهد أو الشهيد أى الحاضر ، فالحاضر إذن هو الذى يرى بعينه ، ويعاين ببصره وبصيرته ، ثم يقر بما رآه عين اليقين ،

ولا يرى إلا من نظر وتامل وتمعن حتى يشهد بما رآه .

(١)« ومن أعظم شرور الجهل شرا ، أن الجاهل يجهل جهلة ، فيغتر بنفسه ويعجب برأيه ولا يشعر بعيبه ، ولا يعترف بذنبه ، ، ويمعن فى غضبه ، فكم استاء وهو المسىء وغضب ممن أغضب ، ومن المحال أن ينتصح أو يقتنع بأنه أذنب ، فإذا ران الجهل بظلمته على العقل انقطعت كل صلة بينه وبين عالم الرشد واستحال التفاهم والاقتناع .

وشر من ذلك ، أن الجاهل يحول بجهله نعم الله عليه إلى نقم تضره فى الدارين ، وبدل ان يستفيدها له يسلطها أذى عليه ، فيشقى بما يسعد ، ويهلك بما ينقذ ، فكم كانت نعمة المال نكبة عليه إذ قادته إلى الفساد والتمادى فى الفجور واتباع الشهوات فكان من المسرفين ، وكم كانت نعمة الجمال له شيطانا دفعه إلى هوة الضلال والسقوط فى الوحل فكان من الغاوين ، وكم كان النفوذ فى يده سلاحا ماضيا مهد له سبيل البغى والعدوان فظلم نفسه وغيره وكان من المجرمين ، وكم كانت نعمة

---

(١) (من كتاب تربية القرآن . الجهل)

الأولاد له مرضا أفسد قلبه ، واضعف إرادته وأنساه ربه ، فلم يبال فى سبيل هواهم بأن يغضبه فكان من الفاسقين .

نعم . فكم ضل الجاهل وأضل فهلك وأهلك بسوء عمله وقوله ، وكم كان نكبة على وطنه وعلى نفسه وأهله ، وكم قتل قلوب أولاده بأن أرضعهم سموم جهله ، فياله من وباء فتاك ينشر جراثيم الجهل من حوله . وياله من شر من أخلد إليه ضل . ومن مشى فى وعورة ظلامه زل . ومن لم يتحرر من أسره ذل .

وهكذا يعمى الجاهل فيسلك باختياره مايفضى به إلى الجحيم . ويعرض باختياره عما يؤدى به إلى جنات النعيم ، وماأصدق من قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... مايبلغ الجاهل من نفسه

ولذلك ذم الله تعالى الجاهلين ووصفهم بشر الدواب فى قوله : « إن شر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لايعقلون » « الأنفال ٢٢ » لقد مثل الحكيم الخبير فى هذه الآيات ، الجاهل الذى لايعرف ربه فلا يقدره حق قدره ، كما لايعرف دينه وواجباته نحو ربه ونحو نفسه وغيره ، بشر الدواب الصم الذين

لايسمعون مايهديهم إلى الخير ويبعدهم عن الشر ، البكم الذين لايأمرون بالمعروف ولاينهون عن المنكر ، ثم أمر تعالى رسوله (ﷺ) بأن يسأل كل مؤمن حكيم يفهم مايسمع ومايرى بقوله « قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » « الأنعام ٥٠ » وقوله « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » « الزمر ٩ »

أى لايتفكر فيتذكر إلا أصحاب العقول السليمة الذين يسعون بتفكيرهم لمعرفة ربهم ، فيرون ببصيرتهم وأبصارهم عظيم قدرته وواسع رحمته وجزيل نعمته ، فيؤمنون به حق الإيمان ويتقونه حق تقاته .

أما الجاهل الذى أعرض عما ينجيه ، وتهالك وتهافت على مايشقيه ، فإنه فقد السمع والبصر والعقل فسعى لما يشقيه .

فكم أوقف الجهل نمو العقل فنما البدن وحده وعاش الجاهل حتى الموت طفلا بأعماله وأقواله ، يظل تفكيره تفكير طفل وإن شاب رأسه ، فيرقص مع من رقص ، ويبكى مع من بكى ، وهو لم يفرح ولم يحزن ، فمن أعجب مارأيت من شر عواقب الجهل ، هذه السيدة التى أفسد الجهل عقلها فعاشت هائمة فى ظلمته ،

كالأنعام تروح وتغدو وتأكل وترتع وتفعل ما اعتاد أن يفعله جسدها آليا فى نظام حيوانى رتيب ، فتقضى وقتها فى اختيال بما ارتدته ، أو استعراض لما اشترته ، أو إطراء لتافه ما أتته ، أو ندب على ماقاسته ، أو تفاخر بلذيذ ما التهمته ، ترى عينها الجمال البديع ، وتسمع أذنها المعنى البليغ والنغم الجميل ، ولكنها لاتستمتع به إذ لاتفهمه فلا تقدره ، كالأنعام ، لهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، لأنهم ليس لهم عقول يقدرون بها ، فالإنسان لايحيا إلا بتفكيره ، وينعم بمقدار تميزه وتقديره ، فإذا فقد ذلك تساوى مع الأنعام فى حواسه الخمس « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام . بل هم أضل سبيلا » « الفرقان ٤٤ »

سطا الغباء على عقلها فذهلت عما يزى بها من قول وعمل ، إذ لم تعرف ما يليق قوله ومالايليق ، فتقص على الناس كرها ماجرى لها من تفاهات ، وكيف تزوجت وأنجبت فى سن مبكرة ؛ وتبالغ وتفاخر بهذه المؤهلات ، وتقول بلا داع إلى ذلك إنها سافرت إلى فرنسا وأن من رآها مع ابنها ظن أنه

زوجها أو أخـوها ، ، وما أجمل ما قالت إحـدى السيدات تعليقا عليها ساخرة : ألم يقل أحد إنه أبوك ؟ .

وهكذا كانت تضجر غـيرها بذكر توافه لانهم أحـدا ، وترغمه على سماع مالا داعى إلى ذكره ، لأنها لاتجـد ماتقول ولا تطيق السكوت ، وكم ذمت وسخرت من طعام دعيت إليه ، وذاك لترى غيرها أنها تأكل خيرا منه وأن طباخها أمهر من طباخهم ، فتخجل من تفضل عليها بدعوته ، حيث يجب الشكر والثناء على كرمه ومودته ، وذاك لأن لسانها يتكلم بلا قيادة عقلها الذاهل .

وهى لا تحتاط وهى تأكل حتى كنت أرى على ملابسها ، فوق صدرها وبطنها ، ألوان ما أكلت من طعام ، أرى الملوخية بقعا خضراء ، كما أرى الطماطم (الصلصة) بقعا حمراء ، وأرى المنجة بقعا صفراء ، وبلغ بها الذهول إلى ترك الصنبور مفتوحا وترك الماء يتدفق ، وأخذ ما لغيرها ووضعه فى حقيبتها وهى ذاهلة لا تدرى بما تأتى ، وهى تتحرك حركات لاشعورية مضحكة ، وتنظر نظرات شاخصة بلهاء لا تعبير فيها كنظرات البهائم ، فى خمول الغفلة واستسلام الغباوة ، لاتستيقظ بصيرتها النائمة فلاتستحسن

ولا تستنكر ، ولا تفهم ولا تستفهم .

فانظر أيها القارىء ماذا جنى الجهل ، وكيف قتل وفتك بالعقل ، ألا فليحذر الجاهل شر وخطر جهله ، وليبادر إلى نور العلم لإنقاذ عقله ، مما يزرى به من سوء عمله وقوله .

السامرة الفتانة

ومن أعظم أعراض الجهل ، الغرور بالنفس والسخرية من الغير ، فالسخرية والثرثرة فى توافه الأمور هى احب شىء واعظم لذة للعقل السفيه الجاهل الذى لا يجد ما يفكرفيه ويستمتع به ، إلا الاغتياب والتهكم على عيوب الناس ليقتل وقته الرخيص .

ومن أعجب ما رأيت فى حياتى هذه السيدة التى لا يكف لسانها عن الكلام وعن الآثام إلا عند ما تنام ، فإن لم تزرها إحدى السيدات ولم تستطع الخروج لتزور أحدا فتحظى بمتعة التكلم ، وتسعد وتنعم بلذة التهكم ، استعانت بالسمرة وتكلمت ثم تكلمت ، وتهكمت ثم تهكمت ، حتى افرغت ما بعقلها الأثيم السفيه من أخبار عن العيوب والذنوب والحوادث والكوارث ، وظلت تكلم سيدة بعد أخرى لتشبع نفسها الشرهة استطلاعا عن الإسرار ، وأطلاعا على الأخبار لتتزود بما تتكلم عنه وتختزن ما تسخر منه .

إن كل اعضائها وحركاتها ساخرة ، فهى تسخر بنظراتها وبسمتها وحركة جفنيها ، وتقاص شفتيها ، ولمعة تحديق عينيها ، وهى هازة مشاءة بنميم ، تنتقل من بيت إلى بيت وتعيش هائمة حائمة لا لذة لها فى الحياة ولا عمل لها إلا أن تكشف عن المساوىء والعيوب ، فرجول وأن تفضح الهفوات والذنوب .

(١) فواعجبا لهذه الأذن المتجسسة المتربصة ، وهذه العين الحدقة المتلصصة ، التى تصوب عدستها إلى غيرها لتفحصه ، إذ لاهم لها إلا أن تهتك فى كل نقائصه ، ثم تنتقل فى كل ناد لتنشر ما جمعت ، وتهيم فى كل واد لتذيع ما سمعت ، فهى تحوم حـــول القاذورات لتجمعها ، ثم تجول فى كل بيت لتوزعها ، كالذبابة تقضى حياتها هائمة فى كل الأرجاء ، تقع على الأقذار فتنقل الجراثيم وتنشر الأوباء .

وهى تهزأ وتسخر من الأعمال والأقوال والأحوال ، بل هى تسخر من العيوب الخلقية الفطرية التى أوجدها الله تعالى فى الإنسان بالرغم منه ، وهذا أكبر إثم وأعظم جهل وغباء أن يسخر المرء من عمل الله سبحانه ، ومن العجب أن

---

(١) من كتاب [تربية القرآن]

تسخر من غيرها وهى سخرية ، وتنتقد عيوب وذنوب الناس ، وتفضح أسرارهم وهى أكثر الناس عيوبا وذنوبا ، وتزرى بشرف الناس وتفضح أسرارهم وهى يقال عنها أكثر مما تقول ، فواعجبا ، كيف تسخر من عيوب هى فيها ، وتتهكم على أعمال وذنوب تأتيها ، إنها تسخر حتى من التقوى والاحتشام لأنها فاجرة ، كما تسخر من المؤمنين لأنها كافرة ، وتعرض عن الصلاه وعن الصيام مستهترة ساخرة .

وكم أضحكتنى تشبيهاتها الدقيقة الساخرة للوجوه والعيون ، فقد شبهت عينى إحداهن بعينى البرص ، ووجهها بوجه الخروف ، وعند ما تاملت هـذا الوجـه وجدت أن العينين كما وصفتهما صغيرتان مستديرتان بلا أهداب فى جفنيهما كعيون الطيـور والثعابين وعندما تأملت الوجه وجدت أن الخدين لاصقان غائران لا لحم فيهما كخدى الخروف ، وقالت عن وجه آخر كوجه البيغاء ، وهو حقيقة يشبه البيغاء بأنفه الكبير المحدودب وخديه الغائرين الهزيلين ووجهه الصغير بالنسبة إلى أنفه الكبير ، وكم شبهت الجبين العريض بميدان السباق ، كما شبهت السيقان النحيفة بسيقان الماعز .

أما الكلام عن الأعراض ونقل اخبار الفضائح ، فلا أنشط منها ولا أمهر فى نشرها فى البيوت ، إنها جريدة يومية مجانية ، إذ تنتقل من بيت إلى بيت دائبة جاهدة كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة بلا انقطاع ، هذه تجمع الفضائح وتفشى أسرار الناس ، وتلك تجمع الرحيق وتصنع العسل شفاء للناس .

وقد رايت أن السخرية أصبحت عادة لبعض الناس ، فهم يتهكمون بلا انقطاع ، ولا يرون إلا العيوب والنقائص مهما كانت قليلة ، أما المحاسن فإنهم لايشعرون بها لأن النقائص شغلتهم عنها فلم يأبهوا لها ولم يعبئوا بها ، إنهم لايصغون ولاينظرون إلا فاحصين باحثين عما يسخرون منه ، كما يفحص الطبيب المريض ليكشف عن الداء فيصف له الدواء ، كأنهم يعشقون التهكم ولالذة لهم كلذة الانتقاد ، فيحصرون كل انتباههم فى البحث عن كل عيب ويظلون له بالمرصاد .

فتأمل أيها الساخر المغتاب وابل الأوزار التى تتساقط من فيك وتتراكم على ظهرك ؛ واتق شر لسانك الظالم لنفسك ، المسىء إلى غيرك ، فهو نعمة إذا استخدمته فى الدعوة إلى الله ونصرة الحق ، وهو نقمة إذا أطلقته فى نشر الفساد وأذية

الخلق ، فاحذر أذاه وألجمه من الحكمة بلجام ، وأمسك بعنانه لتردعه عن الحرام ، وقبل أن تنطق زن ومحص الكلام ، ولاتنس أن الله قد جعل عليك الحفظة الكرام ، الكاتبين لما تقول وما تفعل من بر وآثام ، « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول إلالديه رقيب عتيد » « ١٦—١٨ »

الجاهلة المثقفة

ومن أعجب مارأيت ، هذه السيدة الثرية الذكية المثقفة ، التى تجيد أربع لغات أجنبية ، ولاتعرف اللغة العربية ، هذه السيدة حرم معالى الوزير الراقية المترفة فى كيفية حياتها ، الناسية لربها اللاهية عن أهم واجباتها ، إذ لاتقيم الصلاة ولاتبالى بأوامر الله ولاتسعى لفهم شىء من آيات القرآن ، ولكنها سعت جاهدة لفهم الكثير من شتى العلوم واللغات كما شاء لها الهوى .

هذه المثقفة كانت تسخر من نصح الناصحين إذ تعتقد أنها تفهم مالا يفهمه أحد ، وهى لاتفهم أهم وأنفع شىء ، وتدعى

انها اعلم الناس بما يقيها ويعليها ، وهى أجهل الناس بما ينجيها وبما يشقيها ، قالت لى عندما نصحت لها بإقامة الصلاة : إن الله يغفر لمن يشاء ، فقلت لها : وهو كذلك يعذب من يشاء ، فكيف تنتظرين منه المغفرة وأنت مصرة على عصيانه معرضة عن عبادته وطاعته ، فتستجدين ما تستطيعين أن تكونى بعملك جديرة به ، ولا تحاولين بسعيك وطاعتك أن تحظى برضاه لتنجى من غضبه وعقابه .

إنك لا تعبدين فتشكرين من خلقك ورزقك وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، فأكلت ما لذ وطاب ، وارتديت أنفس الثياب ، وعشت فى قصر فاخر ، واقتنيت أثمن وأنفس الجواهر فكيف لا تخضعين بعد ذلك لأمر مولاك الذى يقول « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « الذاريات ٥٦ » .

وما أفظع وأشنع ما أجابت به من كفر بمن وهبها العقل فلم تقدر به ربها حق قدره ، قالت : لم يخلقنا إلا لنعبده ، إن ذلك أنانية ، فيالالهول ، أنظر ماذا فعلت بها ثقافتها وإلى أين قذف بها ذكاؤها ، إن ذكاءها لم ينقذها من ضلالها . وعلمها لم يهدها إلى ربها ، فعاشت بعيدة عنه ، وماتت منبوذة منه .

الافراط والتفريط

ما أصدق من قال : الجاهل لا يرى إلا مفرطاً او مفرطاً ، فلقد رأيت أماً تقية زكية تصلى الفرائض والنوافل وتصوم رمضان ويومين كل أسبوع ، وتتهجد وتحج إلى بيت الله الحرام كل عام ، ثم تترك أولادها غارقين فيما يقترفون من آثام ، ولم تبد لهم نفورها واستنكارها لما يعملون ، بل أسبغت عليهم حنانها ولم تحاول أن تنقذهم من مخالب الشيطان ، ائتمرت بما أمر الله ولم تأمر كما أمرها ، وانتهت عما نهاها عنه ولم تنه غيرها ، حتى تزوجت حفيدتها مدرس الرسم المسيحى كما قلنا ، وكانت ابنتها المدللة منبع الفساد بفسادها ، فأبعدت إبنتها عن الله بإبتعادها .

أما معالى الوزير التقى الكريم الذى يسرف فى عبادة الله ، ويبخل بالنصح لأولاده ، ويغالى فى التهجد ويخلو إلى الله فى (الخلوة) ، ويهمل تربية بناته ولا يبالى بفسقهن وتبرجهن ، إنه يتقرب إلى الله ويتباعد عن واجباته وبناته ، ولا يدرى انه يبتعد عن ربه بابتعاده عن رقابة ورعاية اسرته ، بالرغم من تقربه إليه بكثرة عبادته .

قال فضيلة الشيخ محمد الغزالى : المسلم ، إذا أطاع الله ورسوله، لم يحتبس داخل صومعة محدودة الأركان يفسح جنباتها بالخيال الجامح ، وإنما صومعة المسلم هذه الأرض ذات الطول والعرض ، يملأ جنباتها بالعمل المتقن والواجبات المطلوبة .

وليس الإحسان تجويد جزء من العبادات وإهمال أجزاء أخرى قد تكون أخطر وأجل ، إنما الإحسان أداء فروض العين وفروض الكفاية ، وتناول شئون الدنيا وشئون الآخرة معاً .

هو إشراب الحياة الانسانية حقائق الأمر الالهى ، وإضفاء صبغة السماء على أحوال الأرض .

هو ترقية كل عمل بذكر الله فيه ، لا الفرار من الأعمال بدعوى ذكر الله فى العراء .

إلى أن قال : الاحسان مراقبة ومشاهدة ، والرقابة الالهية لا تتناول عملا ، وتدع آخر ، بل تتناول الأعمال كلها .

الأمم الغبية الثرية

أما هذه الأمم الكثيرة المال القليلة العقل والدين ، التى

تزعم الإسلام والتقوى ثم لا تستنكر المعاصى ، وترضى عن فجور ابنها المدلل الضال ، بل تباهى بأنه يشرب الخمر ويخادن النساء ، وأنها تنفق الكثير على فسوقه وتعطيه بلا حساب ثمن ما يدنسه ولا تبخل عليه بما يمتعه بالحرام ، ولا تخجل هذه الأم التى تدعى التقوى والايمان ، مما يوجب الحياء والكتمان ، بل تقص على سامعيها كيف تدلل ابنها الفاجر الفاسق وتقول له : خذ يا حمادة هذا المبلغ وتمتع به مع البنات ، وكيف اشترت له سيارة ثمينة يملؤها بالداعرات ، وكيف تتصل به بعض هؤلاء الساقطات تلفونياً ويقلن لها إن إبنك يملأ سيارته بالعاهرات وأنت لا تدرين ، ظنا منهن أنها تغضب وتستنكر هذا العمل الذميم من ابنها وتعاقبه على ذنبه ، ولكنها تجيب بقولها : إنى أعلم ما يأتيه ابنى وراضية عن ذلك فلا شأن لكن فيما يعمل .

إنها لا تستنكر منكراً ولا تستقبح حراماً ولا تحتقر آثاماً ولا تبالى بسقوط ابنها وتمرغه فى الوحل وهلاكه فى نار جهنم ، كأنها لا تصدق بوجود الله وعقابه ، فلا تخشى أليم عذابه .

فيا للعجب ، إنى أشك فى إيمان كثير ممن يزعمون الايمان إذ يأتون ما يثبت كذبهم فى زعمهم ، لأن عمل المرء يبرهن على ما فى قلبه والرسول ﷺ يقول « الايمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل » فهل هذا الرضا عن الفسق ، بل هذا الحث والحض على الفجور والدعارة ، يدل على شىء من الايمان وقر فى القلب؟! .

إن هذه الأم تصلى صلاة لا تأمرها ولا تنهاها ، وتصوم صوماً لا يردعها عن هواها ، ولا تهتم بآخرتها كما تهتم بدنياها ، وتتخذ ابنها من دون الله إلهاً ، « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » « الفرقان ٤٣ ، ٤٤ » .

الجهل يدعو الى الشرك

إن من أعظم شرور الجهل شرا . هو الشرك بالله سبحانه ، فهناك من يتخذ لله أندادا ويعبد قبور الأولياء وقبور الآباء والأبناء ، ولا يقسم بالله العلى العظيم ، بل يقسم بقبر أبيه أو قبر ولى من الأولياء ، فهؤلاء القبوريون لا يلجئون عند الشدة إلى من خلقهم ورزقهم ، بل يدعون من دونه الميت ويعرضون

عن الحى ، ويستغيثون بالضعيف وينسون القوى ، ويطلبون من الفقير ولا يطلبون من الغنى .

وهم يعتقدون لجهلهم وغبائهم أن الميت يسمع ويرى بل ويأكل ما يوزعونه من صدقات يسمونها (الرحمة) ، وهى عبارة عن فطائر وفواكه مما كان يحبه الميت فى حياته .

وقد رأيت عجبا من هؤلاء النسوة الجاهلات اللائى يذهبن إلى المقابر ليوزعن على الفقراء مالذ وطاب من (الرحمة) ، ويعتقدن أن الميت يأكل ويستمتع بهذه الألوان اللذيذة ، وأنه يراهن وينتظرهن كل أسبوع فى شوق إليهن ، فيا للجهل بالله وبقوله تعالى لرسوله ﷺ : « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » (النمل ٨٠) وقوله « إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور » (فاطر ٢٢) فهل فوق ذلك وضوح فى أن الأموات فى القبور لا يسمعون ، فكيف يأكلون .

وأعجب من ذلك طريقة توزيع هذه الرحمة التى هى صدقة لا يستحقها إلا الفقير المحتاج ، فكل يحظى منها على قدر قيمته ، لا على قدر حاجته ، فتملأ للغنى سلة من كل الأنواع

الممتازة ، أما الفقير المسكين فيعطى القليل التافه ، فما غرض هذا الجاهل من هذه الرحمة إلا الفخر بما أحضر من أحسن وأثمن الأنواع ، فهو إنما ينفق رئاء الناس لا ابتغاء وجه ربه .

وكم رأيت وسمعت فى المآتم من كفر بالله تعالى وتظلم من من قضائه ، وسخط وتبرم بابتلائه ، فمن جاهلة تقول متوجعة : ما الذى جناه هذا الطفل الذى لا يزيد سنه على العاشرة حتى يحبسه الله فى القبر ويحرمه متع الحياة ؟ وأخرى تقول : لماذا يقضى على هذه الشابة قبل الأوان وهى فى ريعان شبابها ولما تفرح بأولادها ، ولماذا يعذبها بالمرض وهى لم تفعل شرا ؟؟ وهكذا دفع الجهل إلى الشرك وإلى الكفر لعدم معرفة حكمة الله فى كل ما يعمل ، وهو يقول سبحانه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » « البقرة ٢١٦ » .

إن كل مصيبة يصيب بها الرحمن الرحيم عباده لها هدف كريم ، وكل من مات شاباً أو طفلا قد أدى رسالته من تكفير عن ذنب ، أو تذكير وتحذير لمن كان له قلب ، فأيقظه من غفلته عما ينبغى ألا ينساه ، وآراه أن الموت يختطف كل حى

فى أى وقت ، سواء كان فى شيخوخته ، أو فى ريعان شبابه أو فى طفولته ، وأن الموت لا يسطو على المريض وحسب ، بل هو يفتك بالقوى السوى وفى سن الشباب أو الطفولة لا فى الشيخوخة وحسب وذلك ليبادر من يفهم حكمة الله فى أمره ، إلى التوبة من قريب ويسارع إلى الاستغفار وعمل الصالحات ولا يرجىء توبة ولا عبادة إلى الغد ، خوفاً من الموت بغتة فى أى لحظة من حياته ، فهل فوق ذلك خير وإنقاذ للمرء ورحمة به من شر نفسه وغمرة هواه .

وكم من جاهلات يبالغن فى الحداد على أم أوأب عجوز كما يبالغن فى حب الظهور والفخر بالرغم من فقرهن وإفلاسهن ، فيلجأن إلى الاستدانة ليضعن خاتما ماسيا فى إصبع الجثة أجراً أو هدية للغاسلة ، كما يجعلن الكفن من أغلى وأثمن النسيج الموشى بالفضة ، ثم يزين القبر بالحرير والرخام الثمين ، ويضعن فوقه الأزهار والشموع والثريات البلورية الغالية كأن الميت يرى ويستمتع بزينة مسكنه الجديد ، فينفقن كل هذه النفقات رئاء الناس وخضوعا لأمر الجهل والتقاليد بالرغم من فقرهن .

أما فى بيتهن فانهن يغطين كل الجدران والمرايا والثريات بالنسيج الأسود . ويصبغن ملابسهن بل يصبغن كل فراشهن باللون الأسود ، فيا للعجب من الجهل وأهله ، ومن الغبى وعمله .

إنهم كانوا لايقسمون إلا بقبر أمهم المزين ، بل علموا أطفالهم ألا يقسموا إلا بقبر جدتهم ، أليس كل ذلك عبادة للقبر ؟؟ والأنكى من ذلك أنهم غضبوا من قريبهم الطبيب الذى عالج أمهم مجانبا وعنى بها ، وذلك لأنه قال الحقيقة وهى أن مرض الأم هو السرطان ؛ بل زعموا أنه قتلها خطأ بدواء قضى عليها ، وطلبوا من الله أن يموت بالسرطان ، وكان هذا العداء جزاء الإحسان .

وكم فرحوا شامتين به عند مامات هو ايضا بهذا المرض الخبيث ، فعافت نفسى هذا الجهل المطبق وهذا الغباء الذى يعمى صاحبه عن الإحسان بل يجعله يرى الخير شرا والعناية قتلا ، فيحقد ويبغض حيث يجب الشكر والحب والعرفان و فويل للجاهل ، وويل ثم ويل لمن يعامل الجاهل ويعطف عليه ، وصدق من قال : اتق شر من أحسنت إليه ، .

الجهل يدعو إلى الكنود :

الكنود جاهل يتملق من يعطيه ويعرض عن أعطاء ، ويتناسى ما أسعده ويتذكرما أشقاه ، ويجحد ما يرتع فيه من نعم الله ؛ فهو لايكتفى بعطاء الغنى الكريم ، ولايرضى عن قضاء الخبير العليم ، بل يتبرم بابتلاء الصبور الحليم ، وينسب القسوة إلى الرحمن الرحيم ، بل وينسب إليه سبحانه وتعالى الظلم لأنه لم يعدل بين الناس فى المراكز والأموال ، فينقم على الغنى وعلى من أغناه ، ويتعامى عن فضل ربه وجزيل ما أعطاه ، وينسى قول رسوله (ص) [أنظر إلى من هو دونك مالا فذلك أحرى أن تعرف نعمة الله عليك] كما ينسى قول ربه [وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم](الأنعام ١٦٥)

فإنه تعالى رفع بعضنا فوق بعض درجات ليختبرنا فيما آتانا ، ولينفع بعضنا بعضا ، لينفع الغنى الفقير بصدقته ، كما ينفع الفقير المجتمع بخدمته ، فيحظى كل منهما بالأجر ، أجر الشكر وأجر الصبر .

والكنود يسخط على الحاضر فإذا ما صار ماضيا تمناه ، ويتوق إلى المستقبل فإذا ماصار حاضرا هجاه ، وذلك لأنه يحب مالا يملك ويكره مافى يده ، فينفر من يومه ويأسف على أمسه ويتوق إلى غده .

وما أصدق قول أبى العلاء المعرى :

يتمنى المرء فى الصيف الشتا ∴ فإذا ماجاء الشتاء أنكره

ليس يرضى المرء حال واحد ∴ قتل الإنسان ما أكفره

اننا رأيت شر نتيجة الإحسان إلى من لايقدر الاحسان ولايشعر بالجميل مهما كان عظيما ، فهذا إنسان أجزلت له العطاء لأعلمه قيادة السيارة ، ولم أضن عليه بالكثير على تعليمه ثم على تدريبه ، وعلى علاجه وعلاج أولاده وكسوته وكسوتهم سنين عديدة ، واحتملت تغيبه وتركه خدمتى وإهماله نظافة بيتى ليتدرب مدة مديدة ، وكان يأخذ مرتبه كاملا بل يأخذ صدقة شهريا وهو لم يخدمنى إلا قليلا ، وا كثر من ذلك ، أن عرضت سيارتى للتلف وأنفقت الكثير لاصلاحها ، وأعظم من كل ذلك أن عرضت نفسى للخطر وقبلت أن أرافقه فى السيارة وهو لما يجد القيادة ، فاحتملت الجزع والقلق وعذاب

الاضطراب حتى أجاد القيادة بعد لأى ، وبعد ماقاسيت ماقاسيت ، وأنفقت ماأنفقت ، وانتظرت وصبرت ، زدت مرتبه إلى الضعف كما طلب فى وقاحة ، وما إن فاز بما كان يسعى له وراءه استغنى ، حتى عبس وبسر ، وكشر عن أنيابه واتهر ، ولاقدر ما أسدى إليه ولا شكر ، بل تأفف وتذمر ، وتمطى وتنطاب وتنمر ، وانقلبت وداعته وبشاشته إلى غلظة وفظاظة ، كما انقلب اجتهاده فى عمله إلى استخفاف وبلاده ، فعجبت كيف يفسد الإحسان الإنسان ، والله تعالى يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .[سورة الرحمن آية ٦٠]

إن الكلب والهر وأى حيوان يشعر بالجميل ويشكر ويحب من أطعمه أودلله ، ويقابل الاحسان بالحب والعرفان ، فكيف ينحط سيد المخلوقات عن البهائم التى لا تعقل ، فما أصدق قول المتنبى إذا أنت أكرمت الكريم ملكته .. وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا .

تأملت فى دهشة هذا المخلوق العجيب الصفيق وفكرت وبحثت عما دفعه إلى هذا الكفر بالإحسان ؟ فوجدت أن الجاهل الذى فقد الحياء فقد التقدير لما يسدى إليه فيستصغره لطمعه ، ولا يطيق أن ينقطع وابل العطاء بل أن يقل تدفقه لجشعه ، فقد تعود

أن يستمر العطاء فيستمر الأخذ ، اما الشكر فإنه تفتر حرارته وتخمد ، إذا لم تتقد بإحسان جديد ولم يلهبها عطاء متتال ، إنه كشارب الخمر كلما شرب ظمىء وكلما عب منه فقد وعيه وقال : هل من مزيد ؟ وما أصدق قوله تعالى « قتل الإنسان ما أكفره » . سورة عيسى آية ١٧

وهذا الطاهى الذى كان لا يجيد طهى الطعام كما يجيد الاستجداء والتزلف ، هذا الذى عطفت عليه وأجزلت له العطاء سنين عديدة ليربى أولاده فى المدارس ، وكلما مرض أحدهم بادرت إلى علاجه وأحسنت إليه مابوسعى ، وعندما مرض ابنه وهو معنا بالاسكندرية خصصت له غرفه مؤثثة بها دورة مياه ليستريح فيها المريض ، وفوق ذلك كنت أوصله إلى المستشفى وأعيده منها بسيارتى هذه المسافة الطويلة من سيدى بشر إلى البلد ، وكان جزائى بعد العشرة الطويلة والنفقات الكثيرة ، أن فرح لخسارتى مبلغا كبيرا من المال وشمت بى قائلا : سوف نصبح كلنا فى الفقر سواء .

فواعجبا لحقد الجاهل الكفور على من أحسن إليه ، وبغضه لمن عاونه فى محنته وعطف عليه ، إنه يبغض ويحسد من يحسن

إليه لأنه اغنى منه ، بل هو يحقد على الله تعالى ولا يرضى عنه ، لقد حاول ما استطاع أن يغيظنى لأنى أحسنت إليه ، فسرق غطاء الفراش الذى نام عليه ابنه المريض ، كما أخذ مفتاحين مسوجرين (بيل) ولم يعدهما إلى ، بل أخفاهما وذلك لأصنع غيرهما فينتقم منى على إحسانى ، فيا للعجب ، إنه نسى ما أسديت إليه وأصبح عدوالى يتمنى ضررى ، وقابل إحسانى بالإساءة والعدوان ، حيث يجب الشكر والإحسان كما أمر تعالى « وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان » « الرحمن آية ٦٠ »

فإذا كان رد الجميل ومقابلته بالمثل فرضا واجبا ، وعدم رده وشكره كفرا ومعصية يعاقب الله تعالى عليها ، فكيف بمن يقابل الجميل بضده ، حيث يجب أن يقابله بأحسن منه أو بمثله .

إن الذى دعا هؤلاء الجهلة إلى الكفر بإحسان الله والناس ، هو عدم الحياء لعدم شعورهم بما يستوجب الشكر وما يستوجب الندم ، فاستخفوا بقبيح ما فعلوا كما استخفوا بجميل ما حظوا به من الله ومن الناس ، ولذا فهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم لا يندمون فيستغفرون ، وإذا أسبغ الله تعالى عليهم نعمه لا يقدرون فيشكرون ، فهم لا يشعرون بعظيم ذنوبهم ، كما لا يشعرون

بجزيل نعم ربهم ، فأصبحوا أضل من الأنعام فى شعورهم وفهمهم ، إذ أعرضوا عن الفهم بالرغم من سلامة عقولهم ، وقابلوا الإحسان بالعداوة والبغضاء ، واساءوا إلى من أجزل لهم العطاء ، ولم يرضوا عن الله سبحانه ولم يخضعوا لما شاء .

إن الكنود الذى لم يقدر فيشكر لأنه لم يشعر قد أساء إلى من أحسن إليه عدة إساءات ، إذ سطا على ماله ثم استفز غضبه بكفره وشراسته ، فاعتدى على صحته ، ثم أرغمه بشدة الغيظ على تذكيره بإحسانه فأبطل ثواب صدقته ، وهو أثمن وأنفس شىء فى الوجود ، فهل فوق ذلك من أذى وإجرام ، حيث يجب الشكر والاحترام .

تأمل أيها القارىء الكريم ما قاله فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى وصف الكنود ، تأمل هذه الكنوز من الحكم التى دفعتنى إلى أن أغترف من جواهرها مرارا لأزين بها كتابى المتواضع وأنفع بها الناس ، أنظر كيف وصف الجاهل الكنود وصفاً عميقاً ، كما صور الكافر المتأنق المتظرف تصويراً دقيقا ، قال : هناك ناس لهم طباع غبية كنود ، تسدى إليهم الجميل بعد الجميل فكأنما ترقم على الماء ، لا يبقى فى نفوسهم

أثر منه ، ولا اعتراف به .

وكثير مما نلقى على هذا الغرار الردىء يجىء أحدهم بطلبه فتحس أنه محرج ، وأنه محتبس فى دائرة هـذه الحاجة التى يفتقدها ، فإذا ما قضيتها له ولى مدبراً ولم يعقب .

فإذا احتاج مرة أخرى أتى واللهفة بادية فى سؤاله وحالته حتى إذا تم له ما يريد انصرف على عجل أو بعد كلمات ميتة لا تترجم عن قلب حاضر ، ولا فؤاد واع .

هؤلاء الناس يظنون أن الحياة مكافئة بتيسير مطالبهم ، فحسبهم أن يمدوا أيديهم لتعود بما يبتغون ، كما تمد الدواب أفواهها إلى الكلأ وورق الشجر لتطعم منه متى شاءت دون إحساس بفضل من غرس وصنيع من منح .

كذلك هم حذوك النعل بالنعل ، يحتاجون فيجدون فيولون فإذا منعتهم شيئاً مما يريدون ارتفعت صيحاتهم بالسخط والسباب والإستنكار .

لماذا ؟ ؟ إنه صراخ الحيوان المحروم .

فهلا إذ تألمتم من الحرمان أبديتم الرضا والشكر لدى العطاء .

كثير من الناس يعاملون الله بهذا الأسلوب السافل ، يسألونه فيجيبهم ، فإذا رجع أحدهم بيديه حافلة ، مر كأن لم يدع ربه إلى ضر مسه ، مردون شكر ودون حياء ، فإذا احتاج ، وما أسرع الاحتياج عاد بذات الشعور وذات الكنود ، فلماذا يتألم إذا لدغته آلام الحرمان والطرد . ؟ ؟

إن المنع أيسر ما يقابل به الشخص الجاحد ، فهو لا يذوق طعم العطاء ، ولا يقدر صاحبه .

أضيف إلى قول فضيلة الشيخ محمد الغزالى قولى : إن المن على الكفور ما هو إلا عتب وتذكير بواجب الشكر لمن قيض له من أحسن إليه وعطف عليه وأنقذه ، إنه نصح وإرشاد وأمر بالمعروف ونهى عن منكر الكنود والكفر بفضل الله تعالى ، فهذا المتذمر المتبرم الذى لا يقدر فيشكر إحسان من أحسن إليه ، إنما يسخط على خالقه ورازقه ، لأن إحسان الناس من إحسان الله ، وصدقة الناس من عند الله ، ولذا يقول الرسول ﷺ (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) .

ومن العسير جداً أن يستمر المرء فى إحسانه إلى من يستمر فى الاساءة إليه ، وأن يديم العطاء لمن يديم الاعتداء عليه ،

بل يجب إيقاظه من غفلة جهله ، وإنقاذه من شر عمله ، لأن العفو لا يكون إلا لمن ندم على ذنبه واعتذر ، لا لمن استخف بكفره وأصر ، والصبر لا يكون على أذى ظالم ، بل يكون على هفوة نادم ، فهناك الخجول الذى يستحق العفو والإحسان ، والحب ، وهناك الكفور الذى يستحق المن والعتب ، بل يستحق العقاب والضرب ، إذ يسىء إلى من أكرمه ، ويعض يد من أطعمه .

إن هذا الذى لا يخجل مهما أخطأ أو أساء ، بل يتظلم ويتبرم حيث يجب الثناء ، ويتبجح ويتوقح حيث يجب الحياء ، ويتذمر ويتهر ، حيث يجب أن يعتذر ، ومهما قصر وأخر لا يعتذر ، ومهما أهمل وأتلف لا يعترف ، ومهما أخذ ثم أخذ لا يشكر ، ومهما عفوت عن أذاه لا يقدر ، فكيف يكون لومه وإيقاظه منا يبطل صدقات من أجزل له العطاء كما أجزل له النصح ليفيق من شر غفلته .

ولكن المؤمن الذى يطمع فى حسن الجزاء ، لا يكف عن الإحسان ولا يضن بالعطاء ، مهما قوبل إحسانه بالعداوة والبغضاء ، ومهما قصر الكنود فى حقه أو أساء ، بل إنه لا

يحرم المحتاج حقه مهما كفر ، ولا يسبب اذاه واذى اولاده مهما أضر ، ليفوز بما وعد تعالى من صبر وغفر ، قال عز وجل (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) « الشورى ٤٣ » وقال (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) « سوره آل عمران آية ١٣٤ » .

الله الله جميل ويحب الجمال

من اعجب ما رأيت من شر الجهل ، هذه السيدة المتبرجة التى قالت لى عند ما نصحتها بالاحتشام : إن الله جميل ويحب الجمال ، كما قال الرسول ﷺ ، فأنا أتجمل لأكون جميلة ، لأنه تعالى يحب الجمال ، فيا للغباء .

إنها تظن أن الجمال وجوه بيضاء وعيون مكحلة وثغور ملونة ، وقدود رشيقة وملابس أنيقة ، ولا تدرى لجهلها أن الجمال فى كل فعل كريم وكل قول سديد حكيم ، فهناك عمل جميل وقول جميل ، والجمال ليس فى الأبدان وحسب ، بل الجمال الأعظم يكون معنوياً وأدبياً لا مادياً ، فجمال الله عز وجل فى صفاته وعمله وقوله ولا ندرى كيف يكون جمال ذاته ، لأنه ليس كمثله شيء ، فلا يصح ولا يليق أن نشبه جماله بجمال مرأة

متزينة متبرجة ، وجمال وجهها المصبوغ من خدين وشفتين وعينين وحاجبين ، وأنف وشعر ، وجيد وصدر ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، فهل فوق ذلك جهل أن نشبه المولى سبحانه بإمرأة متجملة ، فنتجمل لنكون مثله وهو ليس كمثله شيء .

وهناك سيدة أخرى متبرجة تدعى أن الله تعالى يأمر بالتزين والتجمل لأنه يقول فى كتابه الكريم « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » « الأعراف ٣١ » ولا تدرى لجهلها أن الزينة هى نظافة البدن وارتداء الملابس النظيفة الجديدة عند الذهاب إلى المساجد ، فلا يضايق أحد غيره برائحة عرقه ورثاثة ثوبه وقذارة بدنه ، وغفلت بل تغافلت عن أمره تعالى النساء بقوله « وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن » (النور ٣١) وهكذا دفع الجهل إلى الضلال وأبعد عن الحق والصواب ، وزين لصاحبه سوء عمله فرآه حسناً ، وقانا الله شر الهوى والجهل ، وهدانا إلى حسن العمل القول .

ما خفى من سرقة وما خفى من صرقة

رأيت من الجهل عجباً فهذا الرجل الذى يدعى الاسلام ،

والإسلام منه برىء ، سمعته يقول وهو يقفز مرحا ، ويضحك طرباً وفرحاً : لقد اشتريت هـذا المعزف بنصف ثمنه ، باعه التاجر بهذا الثمن البخس وخسر مبلغاً كبيراً لأنه فى حاجة ماسة إلى النقود ، فاضطر أن يبيعه لى بالثمن الذى أردته ، وقبل هذه الخسارة مرغما ليسدد ديونه ، قلت له : إنك اص سرقت هـــذا الرجل المسكين لأنك انتهزت فرصة حاجته ، فإغتصبته وكنت سبب خسارته ، نعم ، إن هـذا العمل الذميم سرقة واغتصاب لأن التاجر ما قبل الخسارة إلا مضطراً ، فكيف يقبل مسلم تقى يخشى الله ربه ، أن ينتهز فرصة ضيق وشدة لينهب غيره ويتسبب فى ضرره .

وكم من سرقات خفية لا يدرى بها سارقها لأنه فى غمرة جهله وبخله وغفلته ، فيستخدم خادماً بأجر زهيد ثم يحمله ما فوق طاقته ، وكم من عامل أو خادم يهمل فى إعماله ولا يؤدى واجباته كما ينبغى ، ثم يأخذ أجر ما لم يعمله ، بل قد يأخذ ثمن إفساده وإتلافه حيث يجب الإصلاح ، وثمن تقصيره واستخفافه حيث يجب الإتقان ، فكل هؤلاء سرقوا وهم

لا يشعرون ، وظلموا وهم غافلون ، وضل سعيهم فى الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون .

وهناك صدقة خفية كما أن هناك سرقة خفية ، فكم من صدقة فى شراء شىء من فقير معدم بثمن أكثر مما يساويه ، أو شراء شىء لا نرغبه ولا نحتاج إليه شفقة على عجوز ضعيف يحمل فوق رأسه المرتعشة ما يبيعه ليربح قوته الضرورى ، وهو فى حاجة إلى الراحة والغذاء والدواء ، وكم من صدقة خفية فى هدية لفقراء فى حاجة ماسة إلى هـذه الهدية وهم يخجلون فلا يسألون الناس إلحافاً ، مع أنهم فى أشد الحاجة إليها لما هم فيه من فقر ، والمؤمن الكريم يسارع إلى الصدقات والخيرات بكل الوسائل المستطاعة .

الكفر الانانى

لقد كان الجهل سببا للكفر بالله والكفر بنعمه وعقوق الوالدين ، رأيت شابا دفعه الجهل إلى الغرور بنفسه والكفر بربه فلم ير آياته فى السماوات والأرض ولا فى نفسه ، بالرغم من ذكائه ونجاحه فى دراسته ونيله لما أراد من شهادات فيما يهوى ويعشق

من دراسات ، إنه تفانى فيما يحب ففاز بما يرغب من نجاح ، وأعرض عما لا يبالى به من آيات الله فى القرآن ، فكفر بمن خلقه وأنعم عليه بالذكاء ، الذى لم ينتفع به إلا فى السعى لما يتمناه من أمور الحياة الدنيا ، فلم ينقذه هذا الذكاء من الضلال والهلاك .

إن هذا الذكاء الذاهل الغافل بل هذا الغباء ، دفع به إلى عبادة نفسه والتمادى فى العناية ببدنه ، فأفرط فى التأنق والتجمل والتزين ، وفرط فى التأمل والتدبر والتدين ، فهذا التافه المتأنث المتبرج كالمرأة ، يمشى مشية خليعة رقيعة كأنه راقصة ، ويرتدى ملابس غاية فى الأناقة والوجاهة ويصفف شعره ويصبغه كما تفعل النساء المتبرجات ، ويتكلم فى تردد وركاكة كأنه فرنجى لا يجيد اللغة العربية ، ويعتقد هذا السفيه أن قيمة المرء بمظهره وأناقته ومنصبه وعظيم ثروته .

وهو أنانى لا يبالى إلا بنفسه ، ولا يسعى إلا لنفعه ، وقح إذا ما احتاج إلى أحد تزلف إليه ، وما إن يحظى بما يريد حتى يعرض عنه بلاحياء ، إنه لم يعرف الحياء إذ لم يشعر به بتة ، وهو لأنانيته قد تجرد من كل عاطفة كريمة فلا يهتم بغيره

ولا يبالى بأمره مهما كان أقرب الناس إليه ، واجزل له العطاء وعطف عليه ، إنه لايعرف ربه فكيف يعرف أهله ، إنه لايشكر من خلقه ورزقه فكيف يشكر من نفعه أو خدمه ، فهو قد تجرد من الحياء كما تجرد من الإيمان ، فلا يجامل ولا يقابل المعروف بالمثل ولا يشكر من أحسن إليه ، ولا يعود مريضا ولا يكترث بمن أحبه وحنا عليه .

فياله من حشرة قذرة ، وياله من جرثومة خطرة ، وياله من مخلوق حقير أحط وأضل من الأنعام إذ يعد كل من آمن بالله تعالى أبله غبيا ، ويدعى أن الله ما هو إلا شيء وهمى يخيف الناس به السذج الأغبياء كما يخيف الآباء والأمهات أطفالهم (بالبعبع) أو العفريت ، وتمادت به الجرأة على الله سبحانه ، أن يتهكم عليه عز وجل بما لا أستطيع قوله لأنى لا أحتمل ذكره وتصوره .

إن هذا الشقى عشق نفسه فعبدها ، وذل لأهوائه وسجد لها ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا فسعى لها ، فهو تعس غلبت عليه شقوته ، شره غلبت عليه شهوته ، فكم تمادى وأسرف فيما يشتهى ويبتغى ، وكم أعرض مستخفا عما يجب وعما ينبغى .

وما أجمل وأبرع ما قاله فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى وصف هذا الصنف البغيض من البشر .

قال : رأيته لامع الشعر والنعل ، حسن الهندام ، يتأنق فى الحديث ، ويتلطف مع الآخرين ويفرق البسمات والتحيات بأدب جم .

فقال لى صاحبى : مارأيك فيه ؟؟ إنـه من أولئك الذين صنعتهم الحضارة الحديثة على نحو معين .

قلت : ما تعنى؟ ؟

قال : أعنى أنه لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر .

قلت : إذن فهو حيوان مستأنس .

قال : أفبعد هذا الارتقاء تصفه بأنه حيوان متأنس . ؟ ؟

قلت : إن الاستئناس هو الوصف الذى أضفته عليه الحضارة وسيبقى حيوانا ما بقى كافرا بالله ، فإذا آمن فهو عندئذ إنسان

إنه لطيف الشمائل ، حـــلو المنظر ، ولذلك قلت : إنه مستأنس كهذه القطط والـكلاب التى نألفها ونسمح لها بالتطواف علينا ، ولانلقاها بالرصاص كما نلقى الذئاب والضباع .

الغبي الذكي

لقد أدهشني ما رأيت من تناقض في صفات بعض الناس وكيف تجتمع الأضداد في شخص واحد ، كيف يجتمع في إنسان واحد الغباء والذكاء معا ، والسفاهة والنباهة ، والحرص والاستخفاف وكيف يتراوح رجل بين الحب والحنان ، والعنف والقسوة ، وبين الاحترام والرقة ، والإهانة والغلظة ، وبين الشوق واللهفة ، والاعراض والجفوة . ؟ ؟

رأيت طفلا على جانب كبير من الغباء لايحسن الكلام ولايفهم ما يقال له إلا قليلا ولايحفظ دروسه إلا بمساعدة أمه التي كانت تسهر معه الليالي وتساعده في المذاكرة مساعدة مستمرة حتى نجح بعد لأي ، وبعد ذلك اختار لنفسه كلية الطب وأصر على هذا الاختيار فأيقنت أنه لن ينجح في هذا العلم لأنه أصعب علم وفوق طاقة عقله ، وغير ذلك فهو مهنة مسئوليتها كبيرة وخطيرة وتستدعي حكمة ودقة في العمل ، كما تستدعي ذكاء وفطنة في التشخيص ، فكيف ينجح هذا الشاب وهو مجرد من هذه الصفات . ؟ ؟

وكم أدهشنى نجاحه المتتابع فى تفوق كل مرة ، وظل ينجح ثم ينجح حتى تخرج ، فرأيت أن الاجتهاد والانكباب والمثابرة تمحو الغباء وتخلق الذكاء ، إذ تمرن العقل وتدربه على الفهم والاستيعاب .

إنه حصر كل وعيه وكل سعيه ، وكل جهده وكل وقته فى إصرار على النجاح فنجح ، وصدق من قال : من جدو جد ، ومن طرق الباب ولج ولج .

ولكن هذا الشاب المتفانى المتوانى ، قوى فى ناحية وضعف فى أخرى وهى أهم وأعظم ، إذ حصر كل ما لديه من وعى ووقت فى دراسة الطب ، فلم يبق شيئا لغيره من واجبات مقدسة فهو نسى ربه ليذكر درسه ، وترك الصلاة التى كان يحافظ عليها ، ليكرس كل وقته لما يهواه ويتمناه ، فأخذ من آخرته لدنياه ، وعق أمه وهجرها وقصر فى حق ربه ، فأغضب من وهبت له حياتها ، كما أغضب من وهب له الحياة .

فقبحا لهذا الذكاء الغبى ، الذى أضر أضعاف ما أفاد ، إذ دفع إلى النجاح كما دفع إلى الفساد .

نعود إلى تناقض الصفات وتراوح المرء بين الضدين ، فما

دفع الإنسان إلى التراوح بين الشوق والرقة ، والغلظة والجفوة وإلى التراوح بين الحنان والحب ، والعنف والقسوة ، إلا تراوحه بين حبين ، حب إنسان يعشقه يغمره بالسعادة والمتعة ، وحب هـواية أو مهنـة تغمره بالمـال والشهرة ، فيتجاذبه الحبان ، ويتبادله العشقان ، فإذا ما تاق إلى أحدهما أعرض عن الآخر ، فظل بينهما يتوق ويجفو ، ويحنو ويقسو ، وعاش متنقلا بين حبين ، موزعا فى ناحيتين ، ينصرف عن أحدهما إلى الآخر ، ويأخذ من أحدهما ليعطى الآخر .

اللص التقى

من أعجب وأقبح أعراض الجهل التى رأيتها ، هـذا اللص التقى الذى يزعم إقامة الصلاة ولا يترك من يده السبحة ، وهو يأتى بهذه اليد ما يوجب قطعها كما أمر الله تعالى ، إذ كان جشعا فى السرقة ماهرا فى الاحتيال ؛ وكان يستولى على نصف ما يطبخه من طعام وحلوى وغيرهما بـلا تورع ولاحياء من ربه ، وكان يسرق المسلى والزيت فى عصاته الجوفاء التى صنعها مخبأ يملؤه كل يوم بما يريد ، ثم يغطى أعلى هذه القناة الجوفاء

بمقبض مزخرف فضى يحسبه الرائى ثابتا لاصقا بطرف عصاه ، وهو غطاء يرفع ويوضع فى إحكام فيغطى ويخفى المخبأ فى إتقان .

وكان عندنا كاتب ينتظر الطباخ أمام الباب ليزن اللحم وكل ما اشتراه كل يوم ، فيأبى الطباخ أن يعطيه اللحم إلا بعد أن يدخل فى المطبخ ، ثم يعود إليه باللحم ليوزن .

وبعد مدة طويلة ، لاحظ الكاتب أن نصف اللحم طازج والنصف الآخر غير طازج إذ يختلف لونه عن الآخر ، فاتضح أن هذا اللص التقى ، يشترى نصف المقدار المعين كل يوم ، ويطبخ النصف القديم الذى اشتراه أمس ، ويحتفظ بالنصف الجديد إلى الغد ، وهكذا يربح نصف ما نأكل باستمرار ونحن لا ندرى ، ولذلك فهو كان يدخل المطبخ قبل الوزن ليحضر النصف القديم ، فهل فوق ذلك احتيال ، وهل هذا اللص الخائن صلى وخشى الله ربه وعلم أن الله تعالى يقول فى كتابه الكريم : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، وأن رسوله ﷺ يقول : من لم تنهه صلاته فلا صلاة له ، وهل فوق ذلك جهل أن يعرف أن الله يراه ، ثم يجرؤ على السرقة ولا يخشاه . ؟ ؟

إن السرقة تختلف بإختلاف مواقعها ، ويتفاوت قبحها وعقابها بتفاوت دوافعها ، فمن يسرق من بيت أو من جيب أو من خزانة فى مصرف ، ليس كمن يسرق مما أؤتمن عليه وأخذ أجراً على الحرص والفطنة فى انتقائه ، وعلى عدم الإسراف والاستخفاف فى شرائه ، فمن يهمل أو يسرف حيث يجب الحرص والفطنة ، ومن يسرق مما عهد إليه وكلف بالمحافظة عليه ، فقد خان الأمانة ، وسرق حيث يجب أن يحرس ، فكان كالحارس الذى يتواطأ مع اللصوص ويفتح لهم الباب الذى يأخذ أجراً على حراسته ، فجمع بين الخيانة والسرقة معاً .

ومن دفعه إلى السرقة شراء الدواء الذى ينقذ ولده من المرض أو شراء القوت الضرورى الذى ينقذ أهله من ألم الجوع ، ليس كمن يسرق ليدخن أو ليقامر ويشرب الخمر ، أو ليتوسع فى معيشته ، ويرضى سلطان شراهته ، الكل سرق ويستحق العقاب ، ولكن يتفاوت العقاب ، بتفاوت الأسباب .

مرض القلب

القلب ، أى العقل ، ومالك قلب ، مالك عقل ، وما قلبك معك ، أى ما عقلك معك ، وأين ذهب قلبك أى أين ذهب عقلك ، وقال تعالى « إن ذلك لذكرى لمن كان له قلب » وقال « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » وقلب كل شيء لبه « لسان العرب » .

وقال تعالى : « فى قلوبهم مرض » هذا المرض مرض معنوى لا مرض عضوى ، وهو غيبوبة اختيارية نشأت عن تغافل واستخفاف فذهبت بالإدراك ودفعت إلى الضلال ، لأن أصحاب هذه القلوب المريضة تغافلوا فغفلوا ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ولم يحاولوا الفهم فضلوا ، وأعرضوا عن نور الحق فزلوا ، وأبوا إلا أن يظلوا فى غفلة وغمرة جهلهم فجهلوا .

وقد وصف الله تعالى الذين فى قلوبهم مرض بانهم يخدعون أنفسهم وما يشعرون ، وأنهم يفسدون فى الأرض ولكن لا يشعرون ، وهذا الوصف لهم بعدم الشعور يبرهن على الغفلة والجهل ، ثما الجهل إلا غفلة عما ينبغى أن يشعر به المرء وأن يعرفه من حق وحقائق ، وما الجهل إلا ظلمة تضل المرء وتبعده عن خيره ، وتدعوه إلى ظلم نفسه وغيره ، فاسمع لوصفه تعالى لمن دفعهم مرض القلب إلى الكذب والنفاق والكفر بالله « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » فهل فوق ذلك غفلة وجهل ألا يشعر المرء بضلاله فيعد إفساده إصلاحا ؟ ؟ وما أصدقه تعالى فى وصفه لهؤلاء الجاهلين الغافلين فى قوله « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وقال تعالى عن هؤلاء الغافلين فى آية أخرى : « إن لهم

قلوبا لايفقهون بها » وإنهم لغفلتهم وجهلهم اضل من الأنعام ، إذ أنعم تعالى عليهم بعقول سليمة فأفسدوها وامرضوها بإعراضهم عن الفهم بالتفكر فى آيات الله وتأمل بديع صنعه وإحسان خلقه ، فلم يقدروا فيشكروا نعمة العقل ، فمرض وغبي ورانت عليه ظلمة الجهل ، وذلك جزاء من ابتعد بعقله عن الله وكتابه ، فلم يأبه لغضبة ولم يعبأ بشديد عقابه ، قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » .

هذا هو مرض الغفلة الذى يعمى العينين ويصم الأذنين ويذهل العقل فيصبح الإنسان أضل من الأنعام ، ولذا قال تعالى عن كتابه الكريم : « إنه شفاء لما فى الصدور » بما فيه من موعظة تهدى المؤمنين فترحمهم من شر عواقب الغفلة والجهل « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » أى أن القرآن علاج لمرض القلب يشفيه ويوقظه ، إذ ينبهه من غفلة جهلة فيهديه وينقذه .

وإذا سأل سائل . كيف يكون العقل فى الصدر كما

أخبر تعالى فى قوله : « إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » والحقيقة التى أثبتها الأطباء والعلماء أن الشعور والوعى وكل عاطفة إنما هى فى المخ لا فى القلب الذى فى الصدر ، فالعقل الذى فى المخ ، هو الذى يعى ويشعر ، وهو الذى يفهم ويقدر ، وهو الذى يقود ويسود ، ويصبر ويشكر ، قلت : إن الله سبحانه يكلم الناس بما اصطلحوا عليه ، فكل إنسان من الأزل حتى وقتنا هذا الذى تقدم فيه العلم ، يظن أن القلب هو الذى يشعر ويفقه ، وهو الذى يحب ويكره وهو الذى يحنو ويقسو ، وذلك لأنه يشعر بخفقان قلبه وسرعة نبضه ، كلما اضطرب من خوف أو غضب أو حب أو غيره ، ولذا نسب إليه كل مايشعر به المرء وما يكتمه ، وما يعلنه ، قال تعالى فى كتابه الكريم « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » وقال « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » وقال « إن الله يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » ونسب إلى الصدر كذلك الحقد والغيظ والارتياح والانشراح كما تفهم ذلك فى قوله تعالى « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » وقوله « ألم نشرح لك صدرك » وقوله على لسان موسى (عليه السلام)

« رب اشرح لى صدرى . ويسر لى امرى » كما نسب إليه إغراء شياطين الجن والإنس فى قوله تعالى « الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

وفى لسان العرب ، الصدر أعلى مقدم كل شىء وأوله ، حتى إنهم ليقولون : صدر النهار والليل ، وصدر الشتاء والصيف ، وصدر الأمر أوله ، وصدر كل شىء أوله ، وصدر القناة أعلاها ، وكل ما واجهك صدر ، فقد يكون الغرض من صدر الإنسان أعلاه ، وأعلاه وما يواجهك من الإنسان رأسه ، والله أعم .

وهناك رأى آخر لبعض العلماء ، وهو أن القلب الذى فى الصدر ماهو إلا شىء روحى لابدنى ، يسيطر على المرء ويملك قياده ، وهذا الشىء فى رأيى ، هو الضمير الذى يبكت ويؤنب المرء ويلومه إذا مافعل فاحشة واقترف إثما ، هذا الضمير الذى أقسم به تعالى فى قوله « ولا أقسم بالنفس اللوامة » فهذه النفس اللوامة هى صاحبة هذا الضمير الحى ، الرقيب عليها الذى يهديها ويقيها ، ويردعها ويدفعها ، إنه يسود ويقود من ينصت إلى صوته ويستمع لوعظه ، أما

من يعرض عنه ويعارض امره ، فإنه يضعف ويمرض كما أخبر تعالى فقال « فى قلوبهم مرض » بل إن الضمير قد يموت بعد مرضه إذا قتله المرء بسموم شهواته وجراثيم سيئاته ، وإذا مات الضمير فأصبح المرء بلا حارس يحميه ويقيه شر نفسة الأمارة بالسوء ، لن ينقذه ذكاؤة مهما كان قويا ، فكم من ذكى غلبت عليه شقوته ، وقهرته شهوته ، وأذلته شراهته ، فالذكاء وحده لايجدى ولا ينجى بلا ضمير يوجهه ، وبلا نذير يحذره وينبهه .

فالويل لمن سعى لمرض قلبه ، فاجترأ على عصيان ربه ، واستخف بعواقب غضبه ، إذ فقد الحارس الذى كان يراقبه ويحميه ، بفقده الضمير الذى كان يؤنبه فينجيه .

الداعرة

وسمعت سيدة ، لا ، بل إمرأة جاهلة داعرة ، جاءت مرة لتسمع الدرس الديني ، واجترأت على تدنيس هذا المكان الطاهر وهذا الدرس المقدس ، هذه المرأة التي تدعى الإسلام المثقفة التي تكتب لا أدري ماذا (للتلفريون) ، سألتني سؤالا يدل على جهلها وفسقها ، بل يدل على دعارتها ، قالت : ما الفارق بين الزواج والزنى فقلت لها : إن الفارق بينهما عظيم ، ولا يجهل هذا الفارق أي دين من الأديان ، فكل دين يبيح الزواج وينهى عن الزنى ، ولا يجهل هذا الفارق بينهما إلا البهائم ، فهي التي لا تميز بين الزنى والزواج ، لأنها لا تعرف العفة ولا الحياء كما لا تعرف الحلال من الحرام .

وما أعجب واوقح ما أجابت به ، قالت في قحة : ماذا تعمل إذن من لم تجد رجلا يتزوجها . ؟

فيا للفضيحة ، إنها تجهر بالانحلال ولا تستحى من الإعتراف باقبح وأقذر فاحشة ، فواعجبا لفجورها وتجردها من الحياء والتقوى ، إن المومس تنكر أنها موس ، وكل إمرأة مهما كانت فاجرة داعرة لا تعترف بتـــة بالعهارة ، بل تدعى العفاف والطهارة ، أما أن تعترف كذلك فى جرأة وتبجح بين سيدات محترمات تقيات ، بأنهـا لا تستطيع كبت شهوتها ، ولا تقاوم سلطان غريزتها ، فإنه أمر لم نسمع عنه ولم نره .

قالت وما أقبح ما قالت : إن المرأة فى أعظم البلاد تمدنا وتقدما ، كما فى بلاد (السويد) وغيرها ، لهـــا مطلق الحرية فى معيشتها ، ولا تلام على ما تأتيه فى سبيل رغبتها وسعادتها وشهوتها ، فهى تعيش كما شاء لها الهوى ، ولا يتدخل فى شئونها أحد ولا يحاسبها على أعمالها أب أو أم ، بل هى ترتع فى نعيم الحرية .

فيا للهول ، إنها ترتع فى جحيم الأباحية لا نعيم الحرية ، ترتع كالبهائم فى الحقول ولا تبالى إلا بهواها ، ولا تعيش إلا لدنياها ، لا تعرف ديناً ولا تعبد رباً ولا تطيع إلها .

لقد ذكرتنى هذه المرأة بأخرى تقول ما تعتقد وتعتقد

ما تقول من سخافة ، فهى تعتقد أن الرجل لا يكون رجلا حقا ، إلا إذا استمتع بالنساء قبل زواجه ، اما من يستطيع الانتظار ويستعفف حتى يتزوج فإنه غير طبيعى .

نعم ، إنه غير طبيعى بين الفجار لأنه تقى ، وبين القذرين لأنه طاهر زكى .

إن الرحمن الرحيم الذى خلق الإنسان وسواه ، يعرف قدرته وقوته ومدى إحتماله الآلام والحرمان ، ولذا فهو يقول سبحانه : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وهو يؤكد فى كتابه الكريم أن الرجل يستطيع العيش بلا نساء فى قوله : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » « النور ٣٣ » .

وهذا نص صريح فى أن الرجل يستطيع الصبر عن النساء ، وإذا لم يغنه الله من فضله فلا زواج ، فإذا كان الرجل يستطيع العيش بلا نساء ، فكيف لا تستطيع المرأة أن تعيش بلا رجل وهى أضعف منه قوة وشهوة ، بدليل أن الرجل قد يتزوج بأربع نساء أما المرأة فإنها لا تتزوج إلا برجل واحد فقط ، بل قد يشاركها فى هذا الزوج الواحد زوجة أو زوجات .

الكلب

من أقبح ما رأيت فى حياتى فعافته نفسى ، هذه السيدة القذرة فى أناقة ، الجاهلة فى لباقة ، المستخفة فى صفاقه ، هذه المتفرنجة المتكبره ، المترفة المبذرة ، المسرفة المقصرة ، التى تعشق كلبها وتدلله ولاتفارقه ليلا ولا نهارا ، فينام فى أحضانها ويعيش فى حجرها ، وتحمله حيث ذهبت وأينما جلست فوق صدرها ، ولاتطعمه إلا لحم الدجاج أو لحم الخنزير معها فى إناء واحد وتنعم وتسعد بأن تقبل فمه المتدفق فترى لعابه يسيل لامعا على شفتيها وخديها وكفيها ، كما ترى اظافرها الحمراء المدببة الطويلة قد تراكمت فيها القاذورات ، وتجمعت فيها الفضلات .

جاءت هذه السيدة الجاهلة لزيارتى وهى تحتضن كلبها العزيز ، فجزعت خوفا أن تقبلنى ، وصافحتها فى اشمئزاز ثم سارعت لى غسل يدى بعد انصرافها ، ولم أدخر وسعا فى

تحـذيرها من لعاب الـكلب وخطره ، فسالتنى ساخرة . ما السبب وما هى الحـكمة فى تحريم (سلامه) اى لحم الخنزير، الذى أحبه ولا أرى فى أكله أى ضرر ، وما السبب فى أن لعاب الـكلب نجس كما أخبر الرسول (ﷺ) ؟؟.

قلت إن الله تعالى يقول فى كتابه الـكريم (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخـنزير) وذلك لأن الميتة هى المواد التى اصابها الميـكروبات المتعفنة ، وهى تـكفى لإصابة من يتناولها إصابات قاتله ، والدم أسرع وسائل العـــدوى للامراض ، والمعروف الآن أنه إذا استعصى على الطب علاج مرض ما ، لجأ الأطباء إلى الدم ليـكشف بواسطته عن الأمراض ، وأما لحم الخنزير ، فقد ثبت أخيرا أنه العائل الأصلى للدودة الشريطية ، وفى غيابه تنقطع الدائرة التى تعيش داخلها هذه الدودة وماتحملة معها من أمراض ، ولحم الخنزير طرى رخـو ينضج سريعا ولا يظل على النار طويلا ، ولذلك تعيش فيه الجراثيم بعد نضجه ولا يموت منها إلا القليل .

وهناك ضرر آخر فى لحم الخنزير ، وهو أنه يسبب مرض النقرس وآلام المفاصل بما فيه من دهن كثير يرهق الـكبد

والكليتين ، كما يسبب بهذا الدهن الكلسترين فى الدم الذى يسبب تصلب الشرايين وارتفاع الضغط .

أما الكلب فإنه تعالى خلقه لحراسة الانسان وهيأه لذلك وأعده إعدادا متقنا رائعا ، فمنحه قوة خارقة فى حاسة الشم ليعرف بها العدو من الحبيب ، كما حباه قوة حاسة السمع ليشعر بأى حركة مريبة ، وزوده بأسنان وأنياب حادة قوية ليدافع بها عن سيده أو عن بيته ، وعلمه كيف ينبح عند شعوره بأى حركة ليوقظ النائم ويحذره من الخطر .

ومن غرائز الكلب التى أوجدها الله تعالى فيه ليقوم بواجباته خير قيام ، هى الأمانة والتفانى فى حب من يطعمه ويعاشره ، ثم السهر والتربص ليلا ، فهو يقضى الليل جائبا طائفا حول البيت متجولا فى كل النواحى ، ولا يغمض له جفن إلا فى النهار فيجيد الحراسة فى دقة وإخلاص ، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وإذا ترك الكلب يعيش بين الناس يألفهم فتضعف شراسته كما يضعف حرصه وحراسته ، ولذا خلق ليعيش بعيدا عن الناس ليظل حارسا شديداً فظاً غليظاً لايرحم بل يذود عن

بيت سيده حتى الموت ، ولاتغريه أى رشوة من لحم أو عظم .

ومن بديع صنع الله فى الكلب ، أن جعل لعابه وأنفاسه تذيب صلابة العظام ليأكلها فلا يكلف سيده شيئا ، وجعل تعالى فى هذا اللعاب جراثيم مؤذية بل قاتلة وذلك ليبعدوه عن معاشرة الناس فيعيش منفردا ليقوم بمهمته ويؤدى وظيفته التى خلق لها ولذا حذر الرسول (ﷺ) الناس من نجاسة لعاب الكلب ، ففى لعاب الكلب جراثيم كما قلنا قد تتغلغل فى جسم الإنسان حتى تصل كبده وتفتك به حتى تهلك صاحبه ، وهو داء لا دواء له ، فكم من أطفال يلعبون مع الكلاب أصابهم هذا المصاب وأودى بهم ، وكم من خيل وبقر عاشت مع الكلاب تشرب معها فى إناء واحد أصابها هذا الداء ووجد الأطباء بعد موتها هذه الجراثيم قد التهمت كبدها .

وهناك داء أخطر وأفظع يقتل قتله شنيعة أليمة فى لعاب الكلب ، وهو داء يدعو الكلب إلى الجنون فيجرى ثائرا ويعض كل من يلقاه ولا يعرف حبيبا من عدو ، فينقل إلى من يعضه جراثيم لعابه القاتل كما ينقل إليه الجنون فيظل فى عذاب أليم وذهول حتى الموت ، فكيف عرف الرسول (ﷺ) هذه

الأمراض التى فى لعاب الكلب فحذر منه ، وأمر باجتناب نجاسته ليبتعدوا عنه ، فبعد الكلب عن الناس نجاة من هذه الأخطار ، وبعده وانفراده يزيد من شراسته وإحسان حراسته .

قالت هذه السيدة بعد ما سمعت كل ذلك ، إنى لا أبالى بالموت فى سبيل حب كلبي ، بل إنى لومات هذا الحبيب لانتحرت قلت : إنك من أجل هذا الكلب تتركين الصلاة وتبتعدين عن الله ، ومن أجل ربك ومن أجل حياتك ونجاتك لاتبتعدين عن هذا الحيوان ، إنك فى غفلة عن ربك وعن نفسك ، فبدا عليها الغضب ولم أرها منذ ذلك اليوم حتى الآن ، فواعجبا ، إنه لا يرضى أحد عن غيره ويواليه ، إلا اذا تملقه ومدحه بما ليس فيه ، وتغاضى عن عيوبه وعن معاصيه ، والويل له إذا قال له الحق أو طلب منه الحق ، فهو لا يحب إلا من يثنى عليه ويمدحه ، ويبغض من يعتب عليه وينصحه .

العين :

العين نعمة نرى بها بديع صنع الله وما أوجده من أشكال

وألوان ، كما نرى بها جزيل نعمه وجميل خلقه فى إحكام وإحسان ، ولكن هذه النعمة العظيمة تعدها نقمة وتخشاها هذه الجاهلة التى نكبت بزيارتها ، كأنها وباء يقضى على حياتها وسعادتها وعلى صحة وحياة من تحب ، فواعجبا ، نظرت إلى صورة ابنها وليتنى ما نظرت ، وقلت ما أجمله وليتنى ما قلت ، فإذا كانت تخشى نظرتى إلى صورته على الجدار ، فكيف بالإنسان نفسه لو اجترأت ونظرت إليه بعينى القاتلة الفاتكة .

قالت وهى تشير بيدها السمينة ومدت أصابعها الضخمة فى وجهى : إنه كان فى هذه الصورة فى سن الخامسة ، فهو أصغر من أخته الكبرى بخمس سنوات ، وهو أكبر من الصغرى بخمسة عشرة سنة ، وبدا عليها الجزع كأنى أريد قتله ، فعجبت للجهل كيف ينحط بالمرء وكيف ينحدر به إلى الحضيض ، وبهت وخجلت كأنى اقترفت إثما ، وظللت فى سكوت أتأمل هذه السيدة التى تتحلى بالجواهر فى أصابعها وتساءلت لماذا لم تتحل بجواهر العلم والأدب ولم تستنر بنور كتاب الله الكريم الذى يقول « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

تذكرت يوم عزفت ابنتى على المعزف فى قاعة (يورت)

عزفا أبدعت فى إتقانة دعا السامعين والسامعات إلى التصفيق الشديد أكثر من خمس دقائق ، وكانت طفلة لا يزيد سنها على العاشرة ، فأسرعت إلى آنسة إسرائيلية وقالت لى هامسة : ضعى على رأسها شريطاً أزرق منعا لشر العين ، احذرى العين ، فضحكت من جهلها وعلمت أن هذه الخرافات اتت من اليهود والنصارى ، فهى منتشرة أنتشارا عجيبا فى إيطاليا والنمسا وغيرها إذ يضعون فى كل سيـــارة شيئا يتبركون به ، ويعقلون على صدورهم وصدور أطفالهم الصليب الذهبي ، كما تعلق الفلاحات عندنا فى القرى وغيرها (الخميسة) على جبين أطفالهم ، والخميسة زرقاء وبها خمسة ثقوب ، ولا أدرى من أين جاء هذا العلم ، ولماذا يمنع اللون الأزرق والرقم خمسة ، شر العين إذا كان هناك شر عين حقا ، لماذا لايكون اللون الأصفر أو الأحمر أو الأخضر ولماذا لايكون رقم سبعة مثلا ، ومن العجب أن تنتشر هذه الخرافات انتشارا عجيبا بين الناس ، وفى الوقت نفسه لاتنتشر أوامر الله فى القرآن الكريم ، فلا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

وهكذا نجد أن الجهل جامع للمساوىء والعيوب . دافع إلى المعاصى والذنوب . واكتفى بهذا القدر فى وصف شره . وقانا الله عظيم خطره وضرره .

الزوجان النقيضان

من أجمل وأعظم ما رأيت فى حياتى ، هى سيدة كريمة على جانب عظيم من الجمال والقوى والاحتشام ، كما أنها على جانب عظيم من الثقافة والعلم والاطلاع ، فقد حباها الله تعالى نعمة الجمال الخلقى فعشقتها العيون ، كما حباها نعمة الجمال الخلقى فعشقتها العقول ، وبالرغم من أنها فى ريعان شبابها ، فهى ترتدى ثيابا سابغة فى أناقة واحتشام ، كما تختمر ولاتبدى شيئا من زينتها ولا من شعرها ، ولا تستعمل أى أصباغ طاعة لربها وخوفا من غضبه ، فهذه السيدة التقية الزكية الذكية التى درست علوم الطبيعة وتخصصت فى علم الذرة فأصبحت دكتورة ، درست كذلك كتاب الله تعالى فأصبحت من أوليائه المخلصين المتقين .

وللأسف الشديد أن هذا الكنز الثمين النادر ، حظى به من لا يقدره فيشكره ، فإن زوجها التارك للصلاة الهاجر للكتاب

الله راى الخير شرا فنبذ هـذه النعمة العظيمة وانفصل عمن رفضت أن تكشف عن رأسها ولحمها وتتبرج كغيرها من النساء الفاسقات ، فعصت أمره لتطيع أمر الله ورسوله فى قوله (ﷺ) « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق »

اما الزوج الآخر وهـو نقيض هـذا الزوج الجاهل ، فإنه انفصل عن زوجته وقريبته لأنها لاتقيم الصلاة ورفضت الاحتشام والاختمار كما أمر الله ورسوله (ﷺ) ، فهو لايطيق أن يعصى أوامر ربه ، ليطيع هواه ويرضى حبيبة قلبه ، فانظر إلى التباين الصارخ بين الغلبين ، وهـذا التناقض بين صفات الزوجين فهذا يضحى فى سبيل رضا ربه بسعادته وهواه ، وذاك يضحى فى سبيل هواه برضا الله .

واسمع أيها القارىء الكريم إلى بعض ما كتب لى هـذا الزوج التقى الشهم فى رسالته : إن ابنة خالتى وعروسى ، مزروع فى فكرها أن حياتنا فستان (شيك) وسهرة ونزهة فى ناد ، وكل ماعدا ذلك تخلف وجمود ورجعية ، ولقد عشت معها فى حياتها أياما فوجدت أنها معذورة ، لأن كل شىء حولها يؤكد فكرها الخاطىء ، فهى محاصرة (براديو وتلفزيون وسينما)

ومجلات وملصقات ، لا تتعرض أبدا لموضوع الاحتشام ، بل تجعل الأزياء المخالفة لأوامر الله هى الحقيقة والتقدم ، وآيات الله البينات تخلفا ورجعية ، ولذا فهى لاتراعى شروط القرآن الكريم وأوامر الله سبحانه فى ملبسها ، وكلما شرحت لها أوامر الله ازدادت سخرية منى واستهزاء بأوامره سبحانه وخروجا عليها ، بالرغم من أن عمرها الآن تسعة عشر عاما .

إن ابنة خالتى بريئة ولكنها ضحية ، وأنا فى عذاب شديد منذ ان عقد قرانى عليها حتى اليوم ، فكل جهودى تشتتها برامج التليفزيون والأفلام ، وهى لاتجد فى كل ماحولها شيئا يؤكد كلمة الله فى موضوع الاحتشام حتى فى دراستها ، كما لاتجد فى البيت من ينصحها ويوجهها إلى الخير والصواب والخضوع لأوامر القرآن ، بل بالعكس تجد من الوالدين الحض على هذا الفجور والبعد عن الله وأوامره ، والتشجيع على مايغضب المولى سبحانه ، فلا حول ولاقوة إلا بالله .

فانظر أيها القارىء إلى قسوة وغفلة هذين الوالدين الجاهلين وكيف أفسدا أبنتها وأضلاها حيث يجب أن يهدياها إلى الصراط المستقيم ويقياها شر الضلال فينقذاها من غضب الله وعقابه ،

وانظر إلى نتيجة تربية المدارس تربية دينية ، وماذا أثمرت دراسة القرآن الكريم فيها مع اغراء الهوى والإباحية .

ولقد زارنى بالأسكندرية هذا الشاب التقى الكريم مرتين ليستشيرنى فى أمره وليسألنى كيف يولج فى قلب خطيبته نور القرآن ، وكيف ينقذها من شر واديها وكيف يحارب الشيطان ، وقد أجل إتمام الزواج لهذه الأسباب المقدسة ، وهو فى حيرة وفى حسرة لأنه فشل فى سعيه وجهده لإنقاذها وإنقاذ نفسه .

وزارنى مرة أخرى فى القاهرة ، وقد جاءت معه خطيبته وأبوها ، فرأيت أنها على جانب عظيم من الجمال والأناقة ، وأنها رزينة لا يبدو عليها طيش ولاسفاهة ، بل يبدو عليها الهدوء والبشاشة ، أما أبوها فإنه يبدو عليه الضعف والجهل حتى اختار لابنته المدللة اسما فرنجيا رشيقا ، وكان ينظر إلى فريسته فى حب وحنان ولا يدرى المسكين أنه فتك بها وأضلها بضلاله ، وأنه عاون الشيطان على إفسادها بإهماله .

سعيت بوسعى لأقنع هذا الأب الجاهل ، بان هذا الشاب نادر الوجود فى الوقت الحاضر الذى انتشر فيه الفسق والفساد ،

بل انتشر فيه الكفر والإلحاد، وقلت له إن هذا الزوج التقى الزكى هو الذى يسعد ابنته فى الدنيا والآخرة معا، يسعدها فى الدنيا بنصحه ورعايته وتفواه؛ كما يسعدها فى الآخرة إذ يقودها إلى الجنة بطاعة الله، وحاولت إقناعه بأنه مسئول عن أخطاء وتقصير ابنته، بتقصيره فى تحذيرها من غضب الله وإقناعها بطاعته، وأن الرسول «ﷺ» يقول: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.

وبعد انصرافهم قلت فى نفسى: إنى والله لفى حيرة وأتساءل لماذا يسعى الانسان العاقل لضرره، ولماذا لايتقى إغراء هواه ولايبالى بشره؟؟

كيف يرضى له عقله السليم أن يغضب من يخشاه، وهو يعلم أن كل سعادته ونجاته فى رضاه؟؟

فما أعجبك وأحقرك أيها الانسان الظالم لنفسه، الساعى لحتفه، المستخف بنجاته، الخاضع لشهواته.

حقا، إن من غلبت عليه شقوته، غلبت عليه شهوته، فكان من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

إنها رفضت الزوج الطاهر التقي كما اعرضت عن نعيم الجنة من أجل تافه لذة الدنيا الفانية ، فرفض الزوج التقي جمالها وفجورها وطلقها بالرغم من حبه لها وإعجابه بجمالها ، فأكبرت هذا القلب الكريم النبيل وقلت في نفسي : إن عزيز النفس الأبي ينزع من قلبه حب من لا يعبأ به وينفر منه ، ويبتعد عمن يبتعد عنه ، ولا يرمي بنفسه العزيزة تحت اقدام تدوسها مستهترة ، ولا يبتسم لوجوه تشيح عنه مستكبرة ، ولا يستجدي الحب تذللا وإلحافا ، ولا يحب إلا من هو أهل لحبه واحترامه .

إن من تستأسره صورة لحمية جميلة المنظر ، سيئة المخبر ، شهواني دنيء النفس يحب جسدا بجسده ، لا قلبا بقلبه ، لأن الحب الصحيح انسجام روحين وتجاذب قلبين لا تجاذب جسدين .

أما المؤمن الصادق فإنه من المحال أن يود الفاسق وينسجم معه ولو كان أحب الناس إليه ، بل لا بد أن ينفر قلبه الكريم من الاثيم ، وأن يستنكر المنكر فيمن أحب كما أكد الله تعالى في قوله وهو أصدق القائلين [لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم

أو إخوانهم او عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه] (٢٢ المجادلة) نعم أولئك أيدهم بروح منه ، إنه قواهم بقوة تقهر كل قوة ، ألا وهى قوة الايمان التى تذهب بقوة الحب للابن أو الاب أو الأخ أو الزوج إذا كان فاجرا ، فقوى الإيمان من المحال أن يرضى عن الفجور وأن ينسجم مع فاسق ، والحب لايجتمع مع الاحتقار فى القلب المؤمن .

أيتها أشفى

هذه مأساة أليمة رأيتها فى مقتبل شبابى ، وكانت أول ألم شعرت به وأثر فى قلبى ، وظل فى ذاكرتى حتى اليوم .

فعندما كنت طفلة فى السابعة ، رأيت (مدام مارى) وهى ارملة فقيرة كانت تزورنا من حين إلى حين ، حاملة صرة كبيرة تحتوى على ما تبيعه من أنسجة متنوعة ، وجوارب وخمر مختلفة الألوان ، ومناديل وروائح عطرية وغيرها مما يلزم للسيدات اللاتى لم يكن يذهبن إلى المتاجر لحوانيت والملاهى فى ذلك الوقت ، وكن لا يخرجن من بيوتهن إلا قليلا ، لزيارة الأقارب

أو الصديقات ، أو للتنزه فى الحدائق والمتنزهات ليروحن عن أنفسهن .

كانت هذه الأرملة الفقيرة تعمل لتربح قوتها ولتنول ابنتيها اليتيمتين وتربيهما تربية صحيحة ؛ وكم تجولت فى الشوارع حاملة هذه الصرة الكبيرة ، وكم تنقلت من بيت إلى بيت لتحاول بيع ما تستطيع بيعه ؛ وكم احتملت التعب وقاست قسوة الفقر والحرمان فى سبيل تربية ابنتيها الصغيرتين الجميلتين .

ظللت أرى مدام مارى تتردد على منزلنا لتبيع لأمى ماتريده طوال طفولتى ، كما كنت أرى من وقت لآخر بنتيها تجيئان معها لتلعبا معى وتتنزها فى حديقتنا ، إذ لم تكن تزيد سنهما عن سنى أكثر من ثلاث سنوات ، وكم كنت افرح بمجيئهما لأنى وحيدة ليس لى إخوة ولا أخوات .

مرت السنون ونحن نمو ونكبر ونتقابل ونلعب أو نتحادث معا ، حتى تجاوزت كل من البنتين العشرين من سنيهما ، وتوظفت كل منهما بعد تخرجها ، فكفت الأم المسكينة عن عملها الشاق وعن تعب التجوال والمشى على قدميها طوال النهار ، إذ أصبحت

غنية بربح بنتيها كما اصبحت عجوزاً لا قوة لها على احتمال هذا العمل الشاق .

عاشت هذه الأم المحترمة المجاهدة سنتين أو ثلاثا فى راحة وسعادة بفضل حنان ورعاية بنتيها البارتين ، وكانت تزورنا فى ملابس أنيقة نظيفة بعد ما كانت لا تلبس إلا الرث من الثياب الرخيصة الباليه ، وكنت أرى كلا من البنتين من حين إلى حين ، وقد زاد جمالهما واكتمل قوامهما الرشيق ، فقد حباهما الله تعالى بشرة بيضاء ناعمة كالحرير ، وعيونا زرقاء فى لون السماء وشعرا أشقر يلمع ويتألق كالذهب .

قالت لهما أمى يوما : طوبى لمن سيتزوج من أحدكما ويحظى بهذا الجمال الفاتن ، فأجابت إحداهما قائلة : إننا لانريد الزواج بتة لنتفرغ لخدمة أمنا العزيزة التى ضحت بكل شبابها وكرست كل حياتها من أجلنا ، وتعبت وجاهدت فى سبيل تعليمنا وتربيتنا وسهرت على راحتنا وسعت لسعادتنا ، فيجب علينا الآن رد هذا الجميل العظيم ، ومهما عملنا لأمنا فلن نستطيع أن نجازيها على ما أسدته لنا من إحسان ، كما لن نستطيع أن نسبغ عليها ما أسبغته علينا من حنان .

نعم ، ينبغى لنا أن نتعب كما تعبت ، وان نضحى كما ضحت وأن نكرس لها حياتنا كما كرست لنا حياتها ، وأن نسهر على راحتها كما سهرت على راحتنا ، فالخير بالخير والبادى أكرم ، فقالت لها أمى : إن الزواج لا يمنعكما عن رعاية أمكما ، قالت : كلا ، فلربما منعنا الزوج عما يجب لوالدتنا ، ولربما شغلتنا الأولاد عن الواجب المقدس فقصرنا فى حقها ، إنها لم تتركنا فى طفولتنا ، فان نتركها فى شيخوختها .

سافرت الأم العجوز إلى وطنها (رومانيا) لترى إخوتها وأخواتها وأقاربها الذين لم ترهم منذ سفرها إلى مصر أى منذ ربع قرن وزيادة ، ومكثت هناك شهرين أو ثلاثة ، ثم عادت إلى القاهرة ، وليتها لم تعد ، عادت إلى بيتها فلم تجد فيه إلا ابنتها الصغرى ، أما الكبرى فإنها ماتت موتة شنيعة ، أحرقت النار هذه البشرة الحريرية وهذا الشعر الذهبى وهذا الجمال الفاتن والقوام الرشيق .

إن هذه الفتاة الجميلة المسكينة ، دخلت بعد اغتسالها إلى غرفة نومها لترتدى ملابسها ، وكانت الغرفة مضاءة بمصباح موضوع على منضدة أمام خزانة الملابس ، وعندما فتحت مصراع هذه

الخزانة الثقيلة ذات المرآة لتخرج منها ثيابها ، انقلبت فوقها وفوق المضدة التى عليها المصباح ، فاشتعلت النار فيها وفيما حولها ولم تستطع رفع الخزانة من فوقها لثقلها ، فظلت تصرخ صراخ الألم المحرق وتستغيث ، فلم يغثها أحد ممن سمع صراخها لأنها كانت قد أوصدت باب الغرفة ، وظلت تقاسى عذاب النار الأليم حتى كسروا الباب ورفعوا من فوقها الخزانة وأطفئوا النار المشتعلة ولكن بعد ما نضج لحمها وأنتهت حياتها .

فتصور أيها القارىء الكريم كيف فجعت هذه الأم الشقية فى أعز ما لديها ، والأدهى من ذلك وأمر ، أن ابنتها الصغرى أحرقتها هى الأخرى نار حمى التيفوئد وماتت ولما يمر على موت أختها سنة كاملة ، ففقدت الأم البائسة الثكلى كل ما تملك من ثمين وكل ما بنته بجهدها طوال حياتها ، وأصبحت وحيدة فقيرة ضعيفة وفى سن الشيخوخة ، واضطرت إلى العودة لمهنتها القديمة والتجول والتنقل من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع ، وحملت الصرة الثقيلة ، وهى فى هذه السن وهذه المحنة القاتلة الفاقرة ، وذلك لتعول نفسها .

إنى أسمع صوتها إلى الآن يرن مرتعشا فى أذنى وهى تقول :

لقد كنت ملكة سعيدة مدللة ، فاصبحت كلبة ذليلة متجولة ، وكانت فى ذهول الصدمة لا تتكلم إلا قليلا ، ولا تبالى بشىء لأنها فقدت كل شىء ، حتى أصابتها أمراض أليمة فلم تشك كأنها لم تتألم ، ومات أخوها وأختها فلم تشعر بحزن لموتهما ولم تبال بفقدهما ، فقلت فى نفسى : حقا إن النار لا تزيد الشعلة اشتعالا ، كما أن الماء لا يزيد المبتل ابتلالا ، وما أصدق قول المتنبى :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى . . فؤادى فى غشاء من نبال .
فصرت إذا أصابتنى سهام . . تكسرت النصال على النصال .

* * *

وهناك سيدة أخرى اسمها (مدام روزا) تعرف هذه الأم الحزينة وكانت صديقة لها ، وهى عاقر وتحب الإطفال حبا جما ، فأنفقت الكثير وسعت ما استطاعت لتنجب ولو طفلا واحدا ، فلم تفز بما تتمناه طوال الحياة ، وأجرى لها الأطباء عدة عمليات جراحية ولكن لمزيد الأسف لم تجد شيئا فلم تحظ بما تشتهى ، بل ظلت طوال حياتها تحترق شوقا إلى طفل وتحسد كل أم على نعمة الأمومة ، وتنظر إلى كل طفل كما ينظر الظمآن إلى كأس من الشراب المثلج .

سمعت هذه السيدة العاشقة للإطفال تقول لأبي عند ما سمعته يقول عن مدام مارى : ما أشقاها وما أفظع فجيعتها فى ابنتها : أنا أشقى منها ، لأنى عشت كل حياتى احترق فى نار الشوق إلى طفل واحد اسعد بوجوده إلى جانبي ، اما هى فإنها عاشت كل حياتها فى سعادة وفى تمتع ببنتيها ، فكم ابتهجت بابتسامها وفرحت بنجاحهما ونموهما ، وكم استمتعت بوجودها إلى جانبها وسماع كلامهما وضحكاتهما ؛ وكم ماخرت بجمالها وكمالهما ، إنها ذاقت ما لم أذقه من حلاوة الأمومة ، ثم فقدت السعادة بعد ما تمتعت بها أكثر من عشرين سنة .

نعم . إنى أشقى منها ولم أذق رشفة واحدة مما عبته ، ولم أنل سعادة يوم واحد مما نالته ، إن آلام حرمانى تفوق آلام محنتها ، لقد تمتعت بمقدار ما حرمت ، وسعدت بمقدار ما تألمت وكانت نار شوقى أحر وأطول من نار حزنها .

فياللعجب ، لقد دهشت من أقوال هذه المرأة العجيبة ، وشعرت فى كلامها بنار الحقد والحسد والقسوة على هذه الأم البائسة الشقية ، إنها تحسدها على الماضى السعيد ، ولا ترثى لها على الحاضر الأليم ، إذ حظيت بما لم تحظ به ، وذاقت ما لم

تذقه من حلاوة تتوق إليها . ونسيت أنها ذاقت كذلك ما لم تذقه من مرارة وألم ، وأن مقدار ألما يكون بمقدار ما فقدناه لا بمقدار ما حرمناه ، إنها ذاقت مرارة الحرمان والشوق ، ولكنها لم تذق لذع نار فراق من أحبت وربت ومن تحتاج إليه ، وانهيار كل أمل بنته وانتظرته طويلا .

إن ألم فراق الحبيب بعد تعود رؤيته وعشرته ، أشد بكثير من ألم الشوق إلى حبيب نجهله ولم نحظ بخدمته وسعادة عشرته فإن المرء يعتاد ما يعيش فيه من فقر وحرمان ، ومع مرور الزمن تفتر حرارة شوقه إلى ما يتوق إليه ، أما من تعود التمتع بما يهوى وما يشتهى ، فإنه يتألم ألما مبرحا لحرمانه لذيذ ما تعوده ، ولشوقه المتأجج إلى جميل ما أسعده .

خاتمة

كلما نظرت بعقلى إلى الماضى البعيد والماضى القريب ، وكلما تأملت فى ذاكرتى لم أر لأيامى الحلوة السعيدة ، إلا صورة باهتة قد تلاشت حلاوتها وخمدت حرارتها ، أما أيام الألم بالرغم من أنها أقل كثيرا من أيام السعادة ، فإن نارها لم تزل تتأجج فى قلبى وعذابها لم يزل يؤلمه ويعاوده من حين إلى حين ، فكم عشت فى الماضى وعدت إلى مر آلامه ، ولكنى لم أعد إلى سعادة أيامه ، بل إن حرمانى سعادة الماضى يؤلمنى كلما ذكرتها فأصبحت أشعر بألمين ، ألم مما قاسيته ، وألم لما فقدته ، وعلمت أن الألم أشد وأقوى من اللذة ، إذ رأيت أن الألم يمحو اللذة ، أما اللذة فإنها لا تمحو الألم ، كما رأيت أن الخوف يمحو السرور مهما كان عظيما ، أما السرور فإنه لا يمحو الخوف مهما كان قليلا ، والمر مهما كان قليلا يغلب على الحلو ، أما حلاوة العسل فإنها لا تمحو من الفم مرارة الحنظل .

ونظرت فى ذاكرتى إلى من كان حولى فرأيت عجبا ، رايت أن الإنسان سيد المخلوقات الذى ميزه الله تعالى بالعقل ليعقل ، وأنعم عليه بالبصيرة ليستبصر ، ووهب له الرشد ليرشد ويرشد ومنحه النهى لينتهى وينهى ، هذا الإنسان هـــو أغبى وأشقى المخلوقات لأنه لم ينتفع بكنز عقله ، ولم يحاول النجاة من شر جهله ، فأصبح عدوا لنفسه وأهله ، إنه تناسى الموت وهو يراه فلم يسع للاخرة حتى أتاه ، وعصى ربه وهو يخشاه ، وأعرض عن النعيم وهو يتمناه ، فسعى لجهنم من أجل هواه ، فهـل فوق ذلك غباء وشقاء . ؟ أن يعرض المرء عما ينجيه ، ويتهافت على ما يشقيه ، ليستمتع بمـا يشتهيه ، فياحسرة على العباد .

ورأيت من ظل يجمـع ثم يجمع ، ولم يستمتع بمـا جمـع ليجمع ، ومهما زاد دخله وكنزه لم يقنع ، بل تكالب على ما سيتركه وتناسى ما سيأخذه ، فسعى لمـــا يؤذيه وأعرض عما ينقذه ، فهل فوق ذلك غباء وشقاء ؛ أن يترك المرء كل ماجمع لغيره ، وألا ينتفع فى الدارين بخيره ، بل لن ينجوا فى الآخرة من شره ، فياحسرة على العباد .

ورأيت هذا الوالد الجاهل الغافل عن واجباته ، الذى لايستنكر المنكر بالرغم من صومه وحجه وصلاته ، فرضى عن تبرج وتبذل وفجور ابنته وزوجته ، ونسى قول النبي : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فلم يؤد واجبه ولم يبال بمسئوليته ولم ينفذ أمر ربه وأعرض عن طاعته ، وعصى أمره تعالى له (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) [التحريم ٦] .

فهل فوق ذلك غباء وشقاء ، أن يسىء المرء إلى ولده ، وأن يشقى فلذة كبده ، فيظلم نفسه وأحب الناس إليه ، بأن يغضب ربه عليهم وعليه ، فياحسرة على العباد ، وما أحكم قول الله سبحانه (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين) [الروم ٢١] .

ورأيت هذا المتأنق المتفرنج المتلاف ، الذى تهافت على لذاته وبذر ماله فى استخفاف ، واذا ذكر بآيات ربه أعرض عنها ، وإذا حذر من عصيان أوامره سخر منها ، وتمادى فى غيه ونسى ما قدمت يداه ، وأصر على العصيان ولم يستح مما أتاه ، (ومن

أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه)
[الكهف ٥٧]

ورأيت العالم الذى يدعو الى الله ثم يعصيه ، والذى ينهى عن المنكر ثم يأتيه ، ويأمر بطاعة الله ثم لايتقيه ،(أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)
[البقرة ٤٤]

كيف تدعون إلى النعيم وتسعون إلى العذاب ، وكيف تنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، وكيف تقون غيركم ولاتتقون العقاب ؟؟

فوا عجبا لإيمان لايرشد صاحبه ولاينفعه ، وواعجبا الصلاة لاتأمره ولاتردعه ، (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون) [البقره ٨ ، ٩] صدق الله العظيم

فهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
كلمة الشاعر عبد الغنى المنشاوى	٨
كلمة الكاتبة	٩
الأفعى	١١
الحيـــة	١٩
الأغبياء	٢٧
النقيضان	٣٢
الوالدان يقودان إلى النعيم أو الجحيم	٤٢
الإيمـان الضعيف	٥٧
التوبة الكاذبة	٦٩
المترفة المغرورة	٧٤

خطر الاختلاط والتبرج ٨٢
الوقاحـــة ٩٢
البخيـــلة ١٠٨
المتطفـــلة ١١٥
الإيمـــان بالقرآن ١٢٨
الجهـــل ١٤٢
الساخرة المغتابة ١٥٧
الجاهلة المثقفة ١٦١
الافراط والتفريط ١٦٣
الأم الغبية الثرية ١٦٤
الجهل يدعو إلى الشرك ١٦٦
الجهل يدعو إلى الكفر ١٧١
الكافر الأنانى ١٨٣
الغبى الذكى ١٨٧
اللص التقى ١٨٩
مرض القلب ١٩٢

الداعـرة ١٩٨
الـكلب ٢٠١
العـين ٢٠٥
الزوجان النقيضان ٢٠٨
أيتهما أشقى ٢١٤
خاتمـــة ٢٢٢

صواب الخطأ

رقم الصفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٩	٥	أصبغوا	اسبغوا
٣٣	٢	معبوديه	معبوده
٣٥	١٤	آباءهم	أباهم
٣٧	١١	مياه	مياهه
٤٠	٨	المنتفح	المنتفخ
٤٢	٨	غسلته	غسلنه
٥٢	٣	تتيرج	تتبرج
٥٦	٣	نار	نارا
٦٥	٧	ابنسام	ابتسام

دار العلوم للطباعة
٨ ش حسين حجازى ـ ت ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٣ ـ ٣٤٠١